الدكتور فتحي فريد

دروس تطبيقية
من علم المعاني

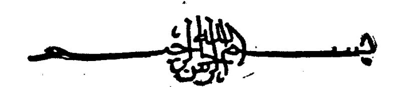
الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

توزيع

مكتبة النهضة المصرية

٩ ش عدلي بالقاهرة



مقدمه

نحمد الله ونستعينه، ونصلي ونسلم على أشرف خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد، ﷺ على آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وبعد:

فهذه دروس من علم المعاني: القصر، والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، عملنا فيها على تقديم القاعدة واضحة من خلال نصوص قرآنية ونبوية وعربية، مبرزين أسرار بلاغتها، برجاء أن يقبل عليها دارسو العربية برضا واقتناع، إقبالا يجعلهم يعشقون لغتهم ويعكفون على فهم أصولها ومعرفة أسرارها، فيزداد تمسكهم بعينهم، وتتوثق علاقتهم بالقرآن معجزة الإسلام الخالدة الذى نزل بلسان عربى مبين.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفع به.

القصر

القصر فى اللغة : الحبس قال تعالى : « حور مقصورات فى الخيام[1] ».
أى : محبوسات فيها ، وقال سبحانه : « وعندهم قاصرات الطرف عين[2] ».
أى قصرن أنفسهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم .

وفى اصطلاح البلاغيين : تخصيص شىء بشىء بطريق مخصوص .
ويشتمل التعريف على أمور ثلاثة نراها فى كل أسلوب من أساليب القصر ،
وهى . مقصور ومقصور عليه وأداة للقصر أو طريق له .

وأسلوب القصر من الأساليب التى تتضمن قوة وتأكيداً لأنه يستخدم
فى مقامات تستدعى تأكيداً وهى مقامات الشك والإنكار ، كما أن فى
أسلوب القصر إيجازاً وذلك لأن جملة القصر فى قوة جملتين إحداهما مثبتة
والأخرى منفية لذلك كان قولنا : إنما محمد ذكى يتميز عن : قولنا محمد ذكى
وليس بغبى بميزتين واضحتين : تأكيد ذكاء محمد مع الإيجاز فى الدلالة
على ذلك .

القصر الحقيقى والإضافى :

قد يكون غرض المتكلم بأسلوب من أساليب القصر أن يخص المقصور
بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلا فيكون القصر حقيقياً
كقولك : ما أكلت اليوم إلا برتقالة إذا لم يدخل فمك من الطعام غيرها ،

وقد يكون غرضه أن يخص المقصور بالمقصور عليه بالإضافة إلى شىء

---

(١) سورة الرحمن : ٧٢
(٢) سورة الصافات : ٤٨

معين وليس لجميع ماعدا المقصور عليه كقولك : ما أمين إلا على تريد اختصاصه بالأمانة بالنسبة لخالد وليس بالنسبة لغيره من الناس ويسمى القصر فى هذه الحالة إضافيا .

واختصاص المقصور بالمقصور عليه فى القصر الحقيقى إذا كان فى الحقيقة والواقع سمى القصر حقيقياً تحقيقياً كقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »(١) ، وإذا لم يؤيده الحقيقة والواقع سمى قصراً حقيقياً ادعائياً كقولك : ما على إلا كريم لا تقصد اختصاصه بالكرم بحيث لا يتعداه إلى غيره من الصفات لتعارض ذلك مع الحقيقة والواقع ، وإنما تقصد المبالغة فى اتصافه بهذه الصفه واشتهاره بها لدرجة أنه لم يعتد بأى صفة سواها .

وقد يكون القصر الإضافى ادعائياً ايضاً كقولك : ما تفوق إلا أسامة بقصر التفوق على أسامة دون محمد ومحمود وخالد الذين تفوقوا أيضاً إلا أنك لم تعتد بتفوقهم لكونه لا يساوى شيئاً إلى جوار تفوق أسامة .

قصر الموصوف على الصفة والصفة على الموصوف :

فى أسلوب القصر غالباً مايجرى الكلام بين موصوف وصفة إثباتاً ونفياً لذلك كان أسلوب القصر واحداً من اثنين : قصر موصوف على صفة أو قصر صفة على موصوف .

فمعنى قصر الموصوف على الصفة : اختصاص الموصوف بتلك الصفة بحيث لا يتجاوزها إلى شىء آخر أصلا فى القصر الحقيقى أو إلى صفة أخرى معينة فى القصر الإضافى كقولك ما أحمد إلا مهندس أى لا يتجاوز ذلك

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩

إلى شىء آخر أصلا فى الحقيقى أو لا يتجاوز الهندسة إلى التجارة وإن تجاوزها إلى صفات أخرى فى الإضافى .

وترى أن ذلك متحقق وواقع فى القصر الإضافى لكنه لا يكاد يوجد فى القصر الحقيقى لتعذر الإحاطة بصفات الشىء حتى يمكن إثبات شىء منها منها ونفى ماعداه ، ولأن لكل صفة من الصفات المنفية نقيضاً ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان فإذا قلت : ماجال إلا ناجح وأردت أنه لا يتصف بغير النجاح لزم تحقيقاً لمعنى القصر ألا يتصف بالنطق ولا بنقيضه وهو محال ، فالتعويل حينئذ فى مثل هذا النوع على قصد المبالغة والادعاء أى بعدم الاعتداد والاهتمام بغير الصفة المقصور عليها .

ومعنى قصر الصفـــة على الموصوف : اختصاص تلك الصفة بذلك الموصوف بحيث لا يتجاوزه إلى موصوف آخر فى القصر الحقيقى كقولك : ما تجار إلا خالد أى ليس هناك تجار غيره ولا يمنع ذلك أن يكون لخالد صفات أخر و بحيث لا تتجاوزه إلى موصوف آخر معين فى القصر الإضافى إذا أردت فى المثال السابق قصر التجارة على خالد دون إبراهيم ولا يمنع أيضاً أن يكون لخالد صفات أخر .

ولا يخفى أنه لا يراد بالصفة فى مبحث القصر النعت النحوى حيث لا يمكن قصره بطريق من طرق القصر ، فلا يقع بعد «إلا» ، ولا بعد «إنما» ولا يعطف ولا يتقدم . وإنما يراد المعنى القائم بالغير المقابل للذات كذلك يراد بالموصوف هنا فى القصر : كل ماقام به غيره ، وإن كان هو فى نفسه صفة كقوله تعالى : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »(١) بقصرهم عبادة الأصنام على التقرب إلى الله قصر موصوف على صفة فى حين أن العبادة فى ذاتها صفة قائمة بالغير .

---

(١) سورة الزمر : ٣

قصر القلب والإفراد والتعيين :

ذكرنا أن فى أسلوب القصر تأكيداً لأنه غالباً ما يستخدم فى مقامات الشك والإنكار لدفع الشك وإزالة الإنكار ، وذلك يحملنا نظر فى أحوال المخاطب بهذا الأسلوب فنرى أنه أما أن يكون معتقداً عكس ما يراه المتكلم ، أو معتقداً الاشتراك فى الحكم أو متردداً فيه .

ويسمى الأول قصر قلب لقلبه اعتقاد المخاطب كقولنا فى قصر الموصوف على الصفة : ما فؤاد إلا شجاع لمن اعتقده جباناً ، وفى قصر الصفة على الموصوف : ما شجاع إلا فؤاد لمن اعتقد أنه على.

ويسمى الثانى قصر إفراد لإفراده الحكم الذى يعتقد المخاطب الاشتراك فيه كقولك : ما محمد إلا طالب لمن يعتقد أنه طالب وتاجر فى قصر الموصوف على الصفة ، وما متفوق إلا عبد الله لمن يعتقد أن المتفوق عبد الله ومحمود .

ويسمى الثالث قصر تعيين لتعيين وتحديد ماتردد فيه المخاطب كقولك: إنما خالد طبيب لمن يتردد بين كونه طبيباً أو مدرساً فى قصر الموصوف على الصفة ، وما طبيب إلا خالد لمن تردد بين كون الطبيب خالداً أو جمالا فى قصر الصفة على الموصوف .

ولا يخفى أن هذا التقسيم إلى: القلب والإفراد والتعيين إنما هو خاص بالقصر الإضافى دون الحقيقى ، لأن القصر الحقيقى كما عرفنا هو ما يكون بالنسبة لجميع ماعدا المقصور عليه ولا يتأتى فى ذلك اعتقاد شركة أو عكس .

وقد اشترط بعض البلاغيين لقصر الموصوف على الصفة قلبا ضرورة تنافى الوصفين .

وفى قصر الموصوف على الصفة إفراداً عدم تنافيهما ولم يوافق على ذلك بعضهم والحق معهم لخروج كثير من أساليب قصر القلب عن هذا المبحث لعدم تنافى الوصفين فيها، ولكون المخاطب بقصر الإفراد من يعتقد الشركة وذلك لا يتأتى إلا فى وصفين غير متنافيين.

أما قصر التعيين فلم يشترط فيه شيء، لأنه أعم من أن يكون الوصفان فيه متنافيين أو غير متنافيين.

طرق القصر :

للقصر طرق متعددة يتأدى بها، لكن الذى اعتمده البلاغيون من هذه الطرق أربعة هى : النفى والاستثناء، وإنما، العطف، تقديم ما حقه التأخير .

وما جاء من الأساليب يدل على القصر بدون وروده على واحد من هذه الطرق فإنه لا يسمى قصراً فى عرف البلاغيين كقولنا : جامعة الأزهر مختصة بالمحافظة على القرآن ولغته .

النفى والإستثناء :

هـــذا هو الطريق الأهم والأوضح من طرق القصر لأن المعنى الذى يعتمد عليه القصر وهو النفى والإثبات أوضح ما يكون فيه، والمراد بالنفى أى حرف من حروفه، وبالاستثناء : أية أداة من أدوات الإستثناء، والمقصور عليه فى النفى والإستثناء هو ما يلى أداة الإستثناء فقولنا : ما على إلا شاعر قصر موصوف على صفة وما شاعر إلا على قصر صفة على موصوف .

ولقوة القصر بهذا الطريق للتصريح فيه بالنفى والاستثناء كان الأصل فيه أن يستعمل فى حكم من شأنه أن يجهله المخاطب وينكره ، ويحتاج فيه إلى تأكيد كقولك لزميلك وقد لحتما شبحاً من بعيد ماهو إلا محمد إذا كان يعتقد أنه على .

فمثل هذا الشبح من شأنه أن يجهل وينكر لبعد الشبح فى مرأى العين، أو فى حكم معلوم ليس من شأنه أن يجهل وينكر ولكنه نزل منزلة الأمر المجهول لنكتة بلاغية .

كقوله تعالى فى قصر الموصوف على الصفة إفراداً : « وما محمد إلا رسول »(١) .

أى مقصور على الرسالة ، لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك ، فالمخاطبون وهم الصحابة رضوا الله عليهم — يعلمون يقيناً أنه مقصور على الرسالة غير جامع بين الرسالة وعدم الموت، لكنهم لما كانوا يعدون موته أمراً عظيما صاروا كأنهم يثبتون له ﷺ صفتين :

الرسالة والخلود — لهذا قصر على الرسالة قصر إفراد ، ونزل هذا المعلوم وهو أنه ﷺ لا محالة ميت منزله ماشأنه أن يجهل وينكر، فاستعمل فيه النفى والاستثناء ، على ما هو الأصل فيهما — والنكتة التى دعت إلى هذا التنزيل : هى استعظامهم لموته ، والإشعار بأنهم فى منتهى الحرص على حياته بينهم ، حتى نزلوا منزلة المنكرين لموته ، فخوطبوا بما يدفع هذا الإنكار المقدر .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٤

ومثله قوله تعـالى : « وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير »(١) .

أى مقصور على الإنذار ، غير جامع بين الإنذار والهداية . وهو أمر معلوم له عليه الصلاة والسلام — غـير أنه لما كان جاهداً أشد الجهد فى دعوة الممتنعين عن الإيمان، شديد الحرص على هدايتهم ملحاً فى توجيه الدعوة إليهم صار فى حكم من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفـة الهداية .

لهذا قصر على الإنذار قصر إفراد تنزيلا للمعلوم — وهو أنه غير ملزم بحمل الناس على الهداية قسرا منزلة ماشأنه أن يجهل وينكر فاستعمل فيه النفى والإستثناء، والنكتة فى ذلك: شدة حرصه على هدايتهم ، وتماديه وإلحاحه فى دعوتهم إلى الإيمان .

ومثاله فى قصر الموصوف على الصفة قلبـا قوله تعالى حكاية عن الكفار فى خطاب الرسل عليهم السلام : « إن أنتم إلا بشر مثلنا »(٢) .

أى إنكم مقصورون على البشرية ، لا تتعدونها إلى الرسالة ، فالمخاطبون وهم الرسل — لم يكونوا جاهلين أنهم بشر مثلهم ، ولا منكرين لذلك ، لكن لما كان الكفار يزعمون أن البشرية لا تجامع الرسالة لاعتقادهم الباطل أن الرسول لا يكون بشراً ، بل يكون ملكا ، مع إصرار المخاطبين على دعوى الرسالة المنافية للبشرية فى زعم الكافرين صار المخاطبون كأنهم ينكرون البشرية ، فقصروا عليهـا قصر قلب ، ونزل علمهم

---

(١) سورة فاطر : ٢٢ ، ٢٣

(٢) سورة إبراهيم : ١٠

بالبشرية منزلة ما شأنه الجهل به وإنكاره ، فاستعمل فيه النفى والاستثناء — والنكتة الحاملة على هذا التنزيل اعتقاد الكافرين أن الرسول لا يكون بشراً ، مع إصرار المخاطبين على دعوى الرسالة .

هذا وليس فى قول المخاطبين : « إن نحن إلا بشر مثلكم » اعتراف وتسليم بانتفاء الرسالة عنهم — كما هو ظاهر — .

وإنما الغرض منه مجاراة الخصم، وإرخاء العنان له واستدراجه بتسليم بعض مقدماته توسلا إلى إصغائه لما يلقى إليه فيعثر ويفحم، فهم يريدون أن يقولوا : إن ما ادعيتم من أننا بشر مثلكم حق لا يسعنا إنكاره ، لكن هذا لا ينافى أن يمن الله علينا بالرسالة .

ولهذا قالوا بعد ذلك : « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » ، فهم قد أثبتوا البشرية لأنفسهم من غير أن يكون فى ذلك اعتراف بانتفاء الرسالة عنهم .

وإنما أثبتوها بطريق الحصر ليكون على وفق كلام الخصم فى الصورة ، وهذا أقوى فى المجاراه ، فالحصر إذاً غير مراد ، فهو حصر صورى .

إنمـــا :

ومن طرق القصر « إنما » وهى تفيد النفى والإثبات ، غير أن إفادتها لذلك أقل من : النفى والاستثناء لأنه صريح فى النفى والاستثناء ، ضمنى فى « إنما » كما ذكر ذلك المفسرون وأئمة اللغة من كون إنما تتضمن معنى « ما وإلا » ، والمقصور عليه فى « إنما » هو المؤخر .

ولكون النفى والإثبات الذى يعتمد عليه القصر فيها ضمنيا غير مصرح به فإنها تستعمل فى الأمور الواضحة التى لاتحتاج لتأكيد كقولك : إنما هو جارك لمن يعلم ذلك ويقر به لكنك تريد أن ترقق قلبه وتنبهه لما يجب عليه من رعاية حق الجوار . ومن ذلك قول أبى الطيب المتنبى :

إنمـا أنت والد والأب القـــا
طع أحنى من واصـــل الأولاد

يريد الشاعر بهذا القول : أن يشفع لدى كافور فى شأن بعض غلمانه ممن باءوا بغضبه ، فلا يقصد أن يعلمه أنه بمنزلة الوالد فذلك معلوم له ، وإنما يريد أن يرقق قلبه عليهم ، ويستثير عطفه وإشفاقه ، من حيث إن الوالد مظنة عطف وحنان .

ومن ذلك قوله تعالى فى وصف المؤمنين من عباده : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون »(١)

فواضح أن المؤمنين هم الذين تقشعر قلوبهم لذكر الله ويزدادون إيمانا عند استماع كلامه ويتوكلون على الله .

---

(١) سورة الأنفال : ٢

وقوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون »(١) فقد ذكروا لأصحابهم من المنافقين أن ادعاءهم الأيمان للمؤمنين إنما هو استهزاء واضح لايشك فيه ولذلك استخدموا « إنما ».

كذلك تستعمل « إنما » فى الأمور المجهولة أو المنكرة التى نزلت منزلة المعلوم والواضح لنكتة بلاغية . كقوله تعالى : « قالوا إنما أنت من المسحرين »(٢) .

فقد ادعوا أن كون الرسول من السحرة من الوضوح بمكان ولذلك استخدموا « إنما » وإن كان ذلك منكرا غاية الإنكار وبعيدا كل البعد . ومثل ذلك قوله تعالى حكاية عن اليهود :

« إنما نحن مصلحون »(٣) أى نحن مقصورون على الإصلاح ،لانتعداه إلى الإفساد ، فقد ادعوا أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره لهذا انزلوا دعوى إصلاحهم المجهول للمخاطبين منزلة ما شأنه أن يكون معلوما لهم ، فعبروا فيه بإنما ، والنكتة فيه : الإشعار بأن مايدعونه من كونهم مصلحين أمر واضح لاينبغى إنكاره .

ولذلك جاء قوله تعالى فى الرد عليهم مؤكدا بعدة مؤكدات : إيراد الجملة الإسمية الدالة على الثبوت ، وتأكيدها « بأن » وتعريف الخبر الدال على حصر المسند فى المسند إليه ، وتوسيط ضمير الفصل المؤكد لذلك الحصر ، وتصدير القول بحرف التنبيه الدال على أن مضمون الكلام مما له

---

(١) سورة البقرة : ١٤
(٢) سورة الشعراء : ١٨٥
(٣) سورة البقرة : ١٢

خطر يستوجب العناية ، ثم تعقيبه بما يدل على التقريع والتوبيخ مجتمعا ذلك فى قوله سبحانه : « ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »(١)

ومن أحسن المقامات التى تستعمل فيها إنما التعريض ، ويراد به الكلام المستعمل فى معناه ليلوح به إلى غيره كما فى قوله تعالى :

« إنما يتذكر أولو الألباب »(٢) أى إنما يتعقل الحق أصحاب العقول ، فمن المجزوم به : أنه لا يراد من هذا الكلام ظاهره ؛ وهو حصر تعقل الحق فى ذوى العقول لأنه من بدائه الأمور ، وإنما هو تعريض بذم الكفار ، وأنهم من فرط جهلهم ، وغلبه الهوى عليهم ، وبلوغهم فى ذلك الغاية القصوى ألحقوا بالبهائم ، وأن من يطمع فى أن ينظروا ويتذكروا كمن يطمع فى ذلك من العجماوات ، وفى هذا التعريض بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لكمال حرصه على إيمان قومه كمن يتوقع التذكر من الحيوان الأعجم .

ومثله قوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها(٣) » وقوله سبحانه : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب »(٤)

فلا يراد من الآيتين ظاهرهما ، وهو حصر تعلق الإنذار فيمن بقلبه إحساس بالخشية من الله والخوف منه إذ هو أمر معلوم ، أو من شأنه أن يعلم ، وإنما هو تعريض بمن لا خشية عنده من الله ، وأنه بمثابة من لا أذن له تسمع ، ولا قلب له يعى ، فالإنذار معه كلا إنذار .

---

(١) سورة البقرة : ١٢

(٢) سورة الرعد : ١٩

(٣) سورة النازعات : ٤٥

(٤) سورة فاطر : ١٨

ومن ذلك قول الشاعر :

وإنما يعـــذر العشاق من عشقا

فقد قصر عذر العشاق على من عشق لاعلى من لم يعشق قصر صفة على موصوف قلباً، ومن المعلوم أن الذى يعذر العشاق هو من ابتلى بداء العشق، واكتوى بناره ، فهو أدرى الناس به على حد قول الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيهـا

فليس المراد إذا هذا المعنى ، وإنما الغرض التعريض بمن خلاقلبه من العشق ، وأنه لا ينبغى أن يلوم العاشق لأنه لايدرى كنه بلواه ، ولو أنه يحس ما يعانيه من لوعة لكف عن لومه ، ومثله أيضاً قول الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنمـا
نجح الأمور بقـــوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليـــك وإنمـــا
يدعى الطبيب لساعة الأوصـــاب

أى إن نجاح الأمور مرهون بقوة أسبابها ، ويستدعى الطبيب عند حلول المرض وذلك من الوضوح بمكان وهو مالم يقصده الشاعر ، وإنما يقصد التعريض بالممدوح من جهتين : من حيث إن نجاح أمره مكفول له باتخاذ الممدوح وسيلة إليه، ومن حيث إن الإستعانة بالممدوح فيما يعرض له من شئون الناس للأمر من جهته ، كما أن التعويل على الطبيب فيما يعرض من سقم ولوج للأمر من بابه ، وفى ذلك إلى جوار التعريض بنجاحه فى الاستعانة بالممدوح تشبيه ضمنى وهو التشبيه الذى يلمح من سياق الكلام ولا يجرى على طريقة التشبيه المعروفة .

العطف :

ومن طرق القصر التى يصرح فيها بالمثبت والمنفى : العطف مما يفقده ميزة الإيجاز ويجعله من الوضوح بحيث لايحوج السامع أو القارىء إلى أعمال فكره فى الوقوف عليه مما يجعله أقل بلاغة من الطرق الباقية .

ويكون العطف بلا ، أو ببل ، أو بلكن ، والمقصور عليه فى العطف بلا هو المقابل لما بعدها ، وفى العطف ببل ولكن مايقع ما بعدهما .

مثال العطف بلا فى قصر الموصوف على الصفة : على خطيب لاشاعر وفى قصر الصفة على الموصوف : على خطيب لامحمود وكونه قصر قلب أو إفراد أو تعيين بحسب اعتقاد المخاطب .

ومثال العطف ببل ولكن فى قصر الموصوف على الصفة : ما محمود حاضراً بل مسافر وفى قصر الصفة على الموصوف : ما أحمد مسافراً بل خالد .

ومن القصر « ببل » قصر صفة على موصوف قول الشاعر :

ليس اليتيم الذى قد مات والده
بل اليتيم يتيم العلم والأدب

قصر وصف اليتم على من فقد العلم والأدب ، دون من فقد أباه ، ومن القصر « بلكن » قصر صفة على موصوف قول الآخر :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت
علىّ ولكن شيبتى الوقائع

قصر وصف التشيب على الوقائع دون تعاقب السنين ، قصرا إضافيا في كليهما .

وقد يسأل فيقال : إذا تنافى الوصفان فى الواقع نحو : خالد شجاع لا جبان ، وما على بخيــــلا بل كريم علم من ثبوت أحدهما نفى الآخر أو من نفى أحدهما ثبوت الآخر — فأى فائدة إذا من قصر القلب بطريق العطف ؟

ويجاب على ذلك بأن فائدته الدلالة على أن المخاطب يعتقد العكس وتصحيح خطئه ، فالذى يفهم من قولك : خالد شجاع لا جبان ، أنه ليس كما زعمت أيها المخاطب ، ومن قولك : ما على بخيلا بل كريم أى : ليس كما زعمت أيها المخاطب — أما قولك : خالد شجاع وما على بخيلا فقط فإنه وإن دل على نفى الجبن فى الأول وثبوت الشجاعة فى الثانى إلا أنه لا دلالة فيه على كون المخاطب يعتقد العكس .

كما يجاب بأن فائدته تأكيد الحكم المنكر ، ذلك أن : خالد شجاع إثبات لوصف الشجاعة له ، وهو منكر عند المخاطب ، لاعتقاده العكس ، والحكم المنكر ينبغى توكيده ، وفى العطف بالنفى تقرير لهـــذا الحكم المثبت ، وتوكيد له .

ويجوز وقوع بل بعد حكم مثبت مثل : على كريم بل بخيل إلا أنها بذلك لا تفيد القصر لأنها وإن أثبتت البخل لعلى إلا أنها لم تنف عنــــه الكرم الذى أصبح فى حكم المسكوت عنه ، وعلى ذلك كان النفى والإثبات الذى يعتمد عليه القصر غير متحقق هنا فكان لا بد من سبقها بالنفى مثل لكن التى لا بد من تقدم النفى عليها .

التقـــديم :

ومن طرق القصر : التقديم أى تقديم ما حقه التأخير كتقديم المسند على المسند إليه والمفعـول على الفعـل والحـال والتمييز والجـار والمجرور وغيرها على الفعل، والمقصور عليه هو المقدم .

مثال ذلك من قصر الموصوف على الصفة : مصرى أنا أى لا عراقى ومن قصر الصفة على الموصوف : عليا كافأت أى لا غيره ، وكونه قصر قلب أو إفراد أو تعيين بحسب حال المخاطب ، ومن القصر بطريق التقديم قول الشاعر .

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصر الشـكوى على الله قصر صفة على موصوف ، فهو المشكو إليه لا غـــيره .

موقع المقصور عليه :

إذا استطعت أن تحدد المقصور عليه أمـكنك بسهولة أن تميز إن كان الأسلوب من قصر الموصوف على الصفـــة أو من قصر الصفـــة على الموصوف .

وموقع المقصور عليه فى النفى والاستثناء بعدادة الاستثناء ويجوز تقديم المقصور عليه على المقصور بحيث يبقى المقصور عليه بعد أداة الاستثناء حتى لا يلتبس بالمقصور مثل قول الشاعر :

لو خـــير المنـــبر فرسانه   ما اختار إلا منكم فارسا

أى ما اختار فارسا إلا منكم ، بتقديم المقصور عليه مع الأداة على

المقصور . والكثير الغالب فى « إنما » أن يؤخر المقصور عليه كقوله تعالى :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »(١) بقصر خشية الله على العلماء دون غيرهم قصرا حقيقيا ادعائيا بجعل العلماء هم أكثر الناس خشية لله تعالى . فلو تقدم المقصور عليه « العلماء » لصار المعنى : ما يخشى العلماء إلا الله وهو غير مقصود .

وورد فى بعض الأساليب تقديم المقصور عليه مع « إنما » كقول ابن الرومى .

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن عين البصير غطاؤها

وكيف بقاء النفس فيها وإنما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

أى ما ينال بقاؤها إلا بأسباب الفناء — فقد تقدم المقصور عليه وهو : أسباب الفناء .

والذى يحدد المقصور عليه المقدم فى القصر « بإنما » إنما هو المعنى والسياق ، ولذلك يمتنع تقديمه إذا لم يكن فى السياق ما يحدده حتى لا يلتبس بالمقصور .

والمقصور عليه فى العطف « بلا » هو المقابل لما بعدها كما فى قول ابن الرومى :

يهتز عطفاه عند المدح يسمعه ... من هزة المجد لا من هزة الطرب

فالمقصور عليه هو المقابل لما بعد لا وهو هزة المجد ، أى إن اهتزازه عند سماع المدح يكون لما يتضمنه من المجد وليس الطرب قصر موصوف على صفة .

---

(١) سورة فاطر : ٢٨

والمقصور عليه فى «بل» و «لكن» ما بعدهما كقوله تعالى :
«ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء»(١) بقصر الشهداء
فى سبيل الله على الحياة دون الموت قصر موصوف على صفة. وقوله تعالى:
«ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين..»(٢)
بقصره ﷺ على الرسالة دون أن يكون أبا لأحد من المسلمين قصر
موصوف على صفة .

والمقصور عليه فى طريق التقديم هو المقدم كما فى قول الشاعر :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم   لم يبن ملك على جهل وإقلال

قصر الشاعر بناء الدول وصنع الحضارات على العلم والمال دون الجهل
والإفلاس قصر صفة على موصوف .

موازنة بين طرق القصر :

على الرغم من اتفاق طرق القصر فيما بينها على إفادة القصر إلا أن
هناك أموراً وخصائص تتعلق بكل منها سوى ما سبق من اختلاف مقام
التعبير بالنفى والاستثناء عن مقام التعبير بإنما كما عرفت من أن لكل من
الطريقين مقاما يحسن استعماله فيه .

ومبعث هذا الاختلاف بين طرق القصر مردود إلى ما نعرفه من طبيعة
لغتنا العربية التى يحمل كل حرف فيها دلالة يستقل بإفادتها ومعنى دقيقا
يختص بإفادته وإن اشترك مع غيره من الحروف فى حكم معين، كحروف
الجر وحروف النصب وحروف الجزم التى يحمل كل منها معنى يختص به.

---

(١) سورة البقرة : ١٥٤
(٢) سورة الأحزاب : ٤٠

على الرغم من اشتراكها مع بقية الحروف فى إحداث الجـــر أو النصب أو الجزم ، ومثل ذلك يقال عن أدوات: الاستفهام والتمنى والنداء وغيرها.
ومن هذه الفروق بين طرق القصر .

١ — إفادة القصر : عرفت أن المعنى الذى ينبنى عليه القصر هو الحكم بالثبوت والانتفاء أى إثبات حكم للمذكور ونفيه عن الجميع أو عن معين وتختلف طرق القصر الأربعة من هـــذه الناحية أى من حيث وضوح الإثبات والنفى فيها ، فأوضحها فى ذلك العطف : بلا وببل وبلكن لاشتماله على المنفى والمثبت معا كقولك : القرآن عربى لا أعجمى وما القرآن أعجميا بل عربى أو لكن عربى — ويلى العطف فى ذلك النفى والاستثناء الذى يصرح فيه بالمثبت ويفهم المنفى من مفهوم العبارة كقولك : ما قوة المسلمين إلا فى تطبيقهم لآداب الإسلام ، ثم « إنما » التى تتضمن معنى النفى والاستثناء مثل : إنما قوة العرب فى وحدتهم ، وأخيراً التقديم مثل : ماشياً زرت أستاذي أى لا راكبا .

٢ — الإيجاز : عرفت فى مطلع الكلام على القصر أن من فوائده العامة : الإيجاز ، حيث تعد جملة القصر فى حكم جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية ، وليست جميع طرق القصر على درجة سواء من ذلك فأكثرها إيجازاً التقديم كقولك : القرآن حفظت يليه إنما كقولك : إنما حفظت القرآن ثم النفى والاستثناء كقولك : ما حفظت إلا القرآن ، وأخيرا العطف الذى يذكر فيه المثبت والمنفى كقولك : حفظت القرآن لا الشعر ، وما حفظت الشعر بل القرآن أو لكن القرآن .

٣ — إدراك معنى القصر ، كذلك تختلف طرق القصر من حيث إدراك السامع أو القارىء للمعنى الحاصل بالقصر من كل طريق منها ، فبينما يتحقق له إدراكه بالذوق ومن فحوى الكلام ، وطريقة تركيبه فى طريق التقديم لا يكاد يدرك ذلك فى الطرق الباقية إلا من جهة الوضع، أى واضع

اللغة الذى وضع الاستثناء للإخراج من حكم النفى أى الإثبات ، وجعل « إنما » متضمنة معنى النفى والاستثناء ، وجعل « لا » نفيا بعد إثبات ، وبل ولكن للإثبات بعد النفى .

الجمع بين طرق القصر :

كثيرا ما يجمع المتحدثون والكاتبون فيما يقولون ويكتبون بين أكثر من طريق للقصر، وقد يترتب على هذا الجمع فساد فى المعنى فى بعض المواقف فيمتنع الجمع لذلك ، بينما يكون المعنى سليما فى أحيان كثيرة .

فما يمتنع الجمع فيه لفساد المعنى: الجمع بين النفى والاستثناء ولا العاطفة فلا يقال : ما مصر إلا دولة إسلامية لا شيوعية ، لأنا ننفى بلا النافية شيئا سبق نفيه من مفهوم الجزء الأول من العبارة فيلزم التكرار ، ولذا قيل : إن شرط صحة المنفى بلا العاطفة ألا يكون منفيا قبلها بغـــيرها من أدوات النفى .

ويصح اجتماع النفى « بلا » العاطفة مع التقديم وإنما لكون النفى فيهما ضمنيا وغير مصرح به فيقال : إنما مصر دولة اسلامية لا شيوعية .

والمظلوم أنصفت لا الظالم ، وقد اختلف العلماء لأى من الطريقين : إنما والعطف بلا ، أو التقديم والعطف بلا ينسب القصر فقيل : إنه ينسب لإنما والتقديم ، والعطف بلا تأكيد وقيل : إنه ينسب للعطف بلا وهو المقبول لأنه الذى يدركه الذوق ويهتدى إليـــه أول الأمر ، والعبرة بتحقيق المعنى وإن تعارض ذلك مع اختلاف موقع المقصور عليه فى كل من انما والتقديم والعطف بلا لأن اللغة ذوق وفطرة قبل أن تكون شيئا آخر .

ويجتمع التقديم وإنما ويكون الكلام مستقيما كقولنا : إنما الله دعوت — واختلف كذلك لأيهما ينسب القصر ويكون الكلام مستقيما ولما هو معلوم من وقوع المقصور عليه مؤخرا فى « إنما » ومقدما فى التقديم ، فنسب بعض العلماء القصر للتقديم ، ونسبه آخرون « لإنما » والمعول عليه فى مثل هذا هو سياق الكلام وهو الذى يفصل القول فى ذلك ، ويحدد موقع المقصور عليه الذى لا يلزم أبداً أن يكون مؤخرا مع إنما ومقدما مع إنما والتقديم ، فالأمر للمعنى والحكم للسياق .

ففى قول المتنبى :

أجزنى إذا أنشـــدت شعــرا فإنما
بشعـــرى أتاك المـادحون مرددا

تراه يجعل كل الشعراء الذى يمدحون سيف الدولة محاكين له فى شعره ومرددين معانيه ، أى المقصور عليه هـــو المقدم « بشعرى » وليس المؤخر ، وإلا اختل المعنى المراد ، فقد حـدد السياق والمقام المقصور عليه .

وفى قوله تعالى : « ... فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (١) » اجتمع طريقا إنما والتقديم ومعلوم أن موقع المقصور عليه فى « إنما » التأخير ، وفى التقديم هـو المقدم ، إلا أن السياق والمعنى يؤكدان أن المقصور عليه هـو المؤخر فى : « فإنما عليك البلاغ » أى : « البلاغ » والمقدم فى : « وعلينا الحساب » أى : « علينا » والمعنى إنك مقصور على البلاغ فقط لا تتجاوزه إلى الحساب الذى هو من اختصاصنا .

---

(١) سورة الرعد : ٤٠

وبذلك تقرر أن الاحتكام إلى الأساليب من حيث معانيها المقصوده والمقامات التى ذكرت فيها يعد خير سبيل نحسم به ذلك الموقف الناشىء عن اجتماع أكثر من طريق للقصر بدلا من إفراغ الجهد فى الانتصار لإنما أو للتقديم أو لغيرهما بدون ما سند من معنى أو دليل من سياق .

* * *

الإنشاء

معناه — الفرق بينه وبين الخبر :

قال أبو نواس :

الرزق والحرمان مجراهما بما قضى الله وما قدرا
فاصبر إذا الدهر نبا نبوة فجنة الحازم أن يصبرا(١)

يقرر أبو نواس فى البيت الأول أن الرزق والحرمان بقضاء الله وقدره فهو الرزاق ذو القوة المتين، فإن شهد الواقع بصدق ما رآه كان صادقاً فى خبره ، وإن كان العكس فهو كاذب ، ولا شك أن الواقع يشهد فى كل دقيقة بصدق ذلك — فأبو نوس صادق فيما أخبر به ويسمى كلامه ذلك خبراً ، لاحتماله الصدق والكذب .

وفى البيت الثانى تراه يطلب من المخاطب الصبر على نكبات الدهر ورزاياه إذ فى الصبر وقاية له ومنجاة ، وتلك نصيحة من أبى نواس لامكان لها فى الواقع حتى ننظر إن كان صادقا فى ذلك أم غير صادق — مما يجعلنا نلقب مثل هذا الأسلوب بالإنشاء ، لعدم احتماله للصدق والكذب .

فالخبر : ما كان محتملا للصدق والكذب لذاته .

والإنشاء : مالا يحتمل صدقا ولا كذبا .

---

(١) نبا نبوة : أساء إساءه من قولهم : نبا السيف — إذا لم يعمل فى الضريبة ، وجنة الحازم : وقايته

الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي :

من كلام الحسن رضي الله عنه : «لا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت» ينصح الحسن رضي الله عنه المخاطب ويطلب منه ألا يسعى للحصول على جزاء يفوق الجهد الذي بذله في العمل الذي قدمه ، بل يأخذ من الجزاء ما يوازي عمله حتى تستقيم الأمور .

ومما يؤثر : «أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما» دعوة إلى الاعتدال والتوسط ، وإذا كان الاعتدال والتوسط مطلوبين ومحبوبين في كل الأمور فهما أكثر طلبا في أمر الحب والبغض ، ولما كان كل شيء في الدنيا مصيره التغير وسبيله التحول والتطور ، فخليق بالإنسان أن يراعي ذلك مع من يحبهم ، فلا يكون حبا جارفا مبالغا فيه ، بل عليه أن يكون معتدلا ، لأن هذا الحب وتلك الصداقة قد يتحولان إلى كره وعداوة يوما ما ، كذلك يلزم ناحية القصد وجانب الاعتدال في بغضه — فلا يكون قاسيا حتى إذا ما انقلبت تلك العداوة صداقة يوما ما استجابة لناموس الكون — لا يشعر بحرج من ماض مؤلم ، وكلا المثالين السابقين لا يحتملان صدقا ولا كذبا ، لذا كانا إنشائيين على سبيل النهي في الأول والأمر في الثاني .

وبالنظر في مضمون كل منهما نراه يدعو إلى طلب شيء وتحقيق أمر لم يكن حادثا ولا موجودا وقت الطلب — لذلك كان الإنشاء فيهما طلبيا .

فالإنشاء الطلبي : ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، ولو في اعتقاد المتكلم لأن طلب الحاصل غير لائق .

وقال الصمة بن عبد الله :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا

يقول . عجبا لمنظر هذه الأرض الجميلة ذات الزروع الناضرة ، وتطيب الإقامة فيها ويحلو النزول بها وقت الصيف والربيع فجعلت نفسى فداء لها .

ويقول عبد الله بن طاهر

لعمرك ما بالعقل يكتسب الغنى
ولا باكتساب المال يكتسب العقل

يقسم الشاعر على أن العلماء والحكماء لم يكونوا أغنى الناس ، ولا كان علمهم وحكمتهم سببا فى زيادة ثروتهم ، كما لم تكن كثرة الأموال فى يد شخص ما سبيلا لبلوغه أرقى الدرجات العلمية ـ فلا علاقة بين كثرة الثروة والتفوق العلمى والعقلى ، ولعلك تدرك الأثر البلاغى الذى أضفاه «العكس والتبديل» على الأسلوب السابق وقيمته فى تأكيـــد المعنى الذى أراده الشاعر .

وبالنظر فى هذا البيت والذى قبله نرى أن المعنى فى كل منهما لا يحتمل صدقا ولا كذبا ، لذا كانا إنشائيين ، غير أنه لا يطلب فيهما حصول شىء لم يكن حاصلا وقت الطلب ، لذا كان الإنشاء فيهما غير طلبى .

فالإنشاء غير الطلبى . مالم يكن مطلوبا به حصول شىء غير حاصل وقت الطلب ومنه . التعجب ، والقسم ، والمدح والذم ، وبعض أفعال المقاربة كعسى واخلولق ، وصيغ العقود . كبعت واشتريت . ولم يهتم البلاغيون ببحثه ودراسته ، كاهتمامهم بدراسة الإنشاء الطلبى الذى يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب وقد عللوا ذلك بأمرين .

١ ـ قلة المباحث البلاغية المتعلقة بغير الطلبى ، حيث لم يخرج عن معناه الحقيقى ، فالقسم هو القسم ، والتعجب هو التعجب ، وكذا أفعال المدح والذم وأفعال المقاربة ، أما الطلبى فتكثر مباحثه البلاغية حيث يخرج عن معناه الحقيقى إلى معان أخر تستفاد من السياق والقرائن .

٢ — أن كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبى كانت فى الأصل أخبارا ثم نقلت إلى الإنشاء .

وينحصر الانشاء الطلبى فى خمس هى : الأمر والنهى والاستفهام والتمنى والنداء .

طلب الحاصل :

يقول الأب لابنه الذى يقرأ القرآن : « اقرأ القرآن حتى تشملك بركته وتقول الأم لابنها الذى يستذكر دروسه : استذكر كى تكون من المتفوقين لعلك تلاحظ أن الطلب فيما سبق استعمل فى شىء حاصل وهو قراءة القرآن فى الأول والاستذكار فى الثانى ، وعلى ذلك فلا يصح أن يراد بالطلب معناه الحقيقى لأن طلب الحاصل لا يليق ، وإنما يراد منه معنى يناسب المقام ، فيكون المراد بالطلب فى المثال الأول الإكثار من قراءة القرآن .

وفى الثانى : الاستمرار فى المذاكرة ومنه قول الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله(١) » وقوله (تعالى) : يا أيها النبى اتق الله »(٢) فإن كلا من الإيمان والتقوى حاصل وقت الطلب ، لذا امتنع إجراء صيغة الطلب فيهما على معناها الذى هو طلب الحصول ، وأريد طلب دوام هذا الحصول والمعنى فيهما حينئذ طلب دوام الايمان والتقوى ، أى : دوموا على إيمانكم أيها المؤمنون ، ودم على تقواك أيها النبى .

(١) سورة الحديد : ٢٨
(٢) سوره الأحزاب : ١

الأمر

معناه — صيغه — بلاغته

وهو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء، وله أربع صيغ:

١ — فعل الأمر — كقوله تعالى: (يايحيى خذ الكتاب بقوة[١] —)، (يوسف أعرض عن هذا .. الآية[٢]) «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» الآية)[٣].

٢ — المضارع المقرون بلام الأمر — كقوله تعالى: (لينفق ذو سعة من سعته ....[٤]) وقوله: (وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)[٥].

٣ — اسم فعل الأمر كقوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميا فينبئكم بما كنتم تعملون[٦]) ومثل: صه عن كذا أي: كف عنه، وحى على الفلاح — أي: أقبل على فعل الخير — وآمين بمعنى: استجب فى قول مجنون ليلى:

يارب لاتسلبنى حبها أبدا ويرحم الله عبداً قال آمينـــاً

٤ — المصدر النائب عن فعل الأمر نحو قول الله عز وجل: (وقضى

---

(١) سورة مريم: ١٢
(٢) سورة يوسف ٢٩٠
(٣) سورة هود ٣٧٠
(٤) سورة الطلاق: ٤
(٥) سورة الحج: ٣٨
(٦) سورة المائدة: ١٠٥

ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ..(١)) ورفقاً بالضعفاء وصبراً على البأساء .

عرفت أن الأمر يطلب على وجه الاستعلاء — وكثيراً مايرد فيما نقوله أو نكتبه لغير ذلك المعنى الوضعى الذى يتبادر إلى الذهن عند سماع صيغة الأمر ، بل يراد لمعان أخر تستفاد من السياق وتفهم من قرائن الأحوال ، وذلك يدل على أن اللغة العربية غنيـــه بالمعانى ، حافلة بالتعابير زاخرة بالألفاظ والتراكيب، فالصيغة الواحدة تستخدم فى أكثر من معنى وتستعمل لغير غرض ، مادامت هناك علاقة وارتباط بين المعنى الحقيق والمعانى المقصودة والمرادة . من هـــذه المعانى التى يخرج الأمر إليها : الإباحة : قول الأستاذ لطلابه :

احفظوا قصيدة أو قصيدتين وكقول كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت

أى سواء كان منك الإحسان أو الإساءة فأنا فى غاية الرضا ، ولاتتغير حالى معك ومنه قول بشار بن برد :

فعش واحداً أوصل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

أى إذا لم يكن منك تحمل لمـا يصدر من الناس من مهاتن فاقبل أن تعيش وحدك ، وإلا فسامحهم واصفح عن عيوبهم كى تكون على علاقة بالناس وصلة بهم .

التهديد : كقوله تعالى : « اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير(٢) » فليس المراد به أمرهم بكل عمل شاءوا أو بكل فعل بدالهم ، وبذلك كان الأمر تهديداً لهم على أعمالهم التى يخالفون فيها أمر الله وشريعته .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٢ (٢) سورة فصلت /٤٠

وكقوله تعالى « .. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار »(١) .

فإن الله عز وجل لا يأمره فى الآية بالاستمرار فى كفره وضلاله ، لكنه يهدده ويتوعده ، ويزداد الوعيد بذلك التأكيد : « إنك من أصحاب النــار » .

التعجيز : كقوله تعالى فى خطاب المشركين : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين(٢)) فالأمر مراد به التعجيز ، لأن الإتيان بسورة من مثله فوق مقدورهم وطاقتهم ، كذلك قوله عز وجل: (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان)(٣) .

وقول مهلهل بن ربيعة :

يالبكر أنشروا لى كليبا   يالبكر أين أين الفرار ؟

مراد منه التعجيز أيضاً ، لأن المقصود به إعادة الحياة لكليب ، وذلك خارج عن طاقتهم .

وقول الفرزدق يخاطب جريراً :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتنا ياجرير المجامع

وقول الشاعر :

أرينى جواداً مات هزلا لعلنى   أرى ماترين أو بخيلا مخلداً(٤)

---

(١) سورة الزمر : ٨
(٢) البقرة : ٢٣
(٣) الرحمن : ٢٣
(٤) الهزل : الضيق والفقر

وقوله :

أرنى الذى عاشرته فوجدته متغاضيا لك عن أقل عثار

الإهانة والتوبيخ :

كقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم (١)) فليس المراد به الأمر بذوق العذاب لأن الكافر حال الخطاب فى غصص المذوق ومحنته .

التمنى : إذا استعملت الصيغة فى مقام طلب شيء محبوب لا قدرة للطالب عليه ولا طماعية له فى حصوله لتعذره ، كقول امرىء القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فهو يتمنى أن يزول الليل ويطلع النهار، ثم عاد فقرر أن الهموم متراكمة عليه فى الليل والنهار فلا فضل للنهار على الليل فى ذلك ، ولا يراد بالأمر معناه الحقيقى وهو :

طلب الانجلاء والزوال من الليل ، لأنه لا يعقل ولا يفهم ، وإنما يراد منه معنى يناسب المقام كما رأيت ، وهو تمنى زواله ، تخلصا مما يعانيه من تباريح الجوى .

ومنه قول أبى العلا المعرى :

فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويانفس جدى إن دهرك هازل

ومنه كذلك قول عنترة بن شداد :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

---

(١) سورة الدخان : ٤٩

فالأمر فى الشطر الأول مراد به التمنى لأن الدار لا تستطيع الكلام ولا تقدر عليه ، وفى الثانى يراد به الدعاء لها بالسلامة من البلى والفناء .

التسوية بين شيئين :

إذا استعملت الصيغة فى مقام توهم المخاطب فيه رجحان أحد الأمرين على الآخر كقوله تعالى (فاصبروا أو لا تصبروا .(١)) (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين (٢) أى أن الصبر وعدمه سيان ، وكذلك الإنفاق طوعا أو كرها .

الدعاء :

إذا كان الطلب على سبيل التضرع ، سواء كان الطالب أدنى ، أو أعلى كقوله تعالى : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ... (٣))

وقوله عز وجل : (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين)(٤)

ومنه قول الشاعر:

اسلم يزيد فما فى الدين من أود إذا سلمت وما فى الملك من خلل (٥)

---

(١) سورة الطور : ١٦

(٢) سورة التوبة : ٥٣

(٣) سورة طه : ٢٥ — ٢٨

(٤) سورة الأحقاف : ١٥

(٥) الأود : العوج ، والخلل : الفساد فى الأمر .

الالتماس :

إذا استعملت فى مقام التلطف ، كقولك لمن يساويك رتبة ولو فى زعمك « افعل كذا » دون استعلاء أو تضرع — وإذاً فمناط الأمرية فى الطلب ، الاستعلاء ولو من الأدنى ، ومناط الدعاء فى الطلب التضرع ، ولو من الأعلى ، ومناط الالتماس فى الطلب ، التساوى ولو مزعوما ، ومن الالتماس قول الشاعر :

ياخليـــلى خليـانى ومابى أو أعيدا إلى عهد الشباب

فالأمر فى الشطر الأول مقصود به الالتماس ، لأنه يخاطب خليليه المساويين له فى الرتبة .

وفى الثانى: مراد به التعجيز .

الإرشاد :

إذا استعملت الصيغة فى مقام النصح والتوجية كقول الأرجانى :

شاور سواك إذا نابتك نائبـــة
يوماً وإن كنت من أهل المشورات

وقول أبى العتاهية :

واخفض جناحك إن منحت إمارة
وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وقول الآخر :

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

إلى غير ذلك من المعانى التى نقف عليها بالتأمل فى صيغة الأمر ، والتدبر فى فهم المراد منه ، وتفهم من قرائن الأحوال ، كالامتنان فى قوله تعالى :

(فكلوا مما رزقكم الله (١)) والإكرام فى قوله : (ادخلوها بسلام آمنين (٢)) والاعتبار فى قولة تعالى : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون (٣)

والإثارة والتهييج والحث على الاستمرار والدوام على الفعل كما فى الآيات الكريمة :« واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين(٤) .

وقوله سبحانه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير»(٥) ،

وقوله (عزوجل) :« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها»(٦).

فلا يراد من الأمر فى الآيات معناه الحقيقى ، طلب الفعل ، لتوجه الأمر إلى من يقوم به ولا يتصور أن يكون منه خلافه وهو النبي ﷺ وإنما يراد بالأمر فيها الإثارة والتهييج والقصد إلى استمراره عليه الصلاة والسلام على هذه الأفعال ، والمداومة عليها .

---

(١) سورة النحل : ١١٤
(٢) سورة الحجر : ٤٦
(٣) سورة الأنعام : ٩٩
(٤) سورة يونس : ٩
(٥) سورة هود : ١١٢
(٦) سورة الروم : ٣٠

وتلمح وراء الأمر فى الآيات معنى آخر وهو الإشارة إلى قدرته (عز وجل) وعظيم سلطانه وانفراده بالأمر والنهى، وأن البشرية مهما سمت ومهما كانت منزلتها ومرتبتها فهى تؤمر وتنهى، وهذا تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة، به تظل الوحدانية فى نقاء فلا يتطرق إلى خيال ولا يتسرب إلى اعتقاد سمو النبوة إلى مرتبة الألوهية(١) .

(١) د. محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ص : ٢٧٠ .

النهى

معناه — صيغته — أسراره البلاغية

قال تعالى : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها »(١) — وقال فى النهى عن أكل المال الحرام : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »(٢) ، وقال فى النهى عن أخذ مال اليتيم بغير حق : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن »(٣) وقال فى النهى عن قطع الإنسان رحمه : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم »(٤).

بالنظر فيما سبق من الآيات الكريمة نرى أن كلا منها اشتمل على نهى من الله عزوجل بالبعد عما سبق ، والمنهيون هم العباد — فالنهى على حقيقته لكونه من الأعلى إلى الأدنى .

فالنهى : هو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء ، وصيغته واحدة كما نرى وهى المضارع مع لاالناهية ، والنهى كالأمر يستعمل فى معان آخر تفهم من السياق ، وتستفاد من قرائن الأحوال منها :

الإرشاد : كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ... الآية »(٥) وقول أبى العلاء المعرى :

---

(١) سورة الأعراف : ٦٦ (٢) سورة البقرة : ١٧٨
(٣) سورة الاسراء : ٣٤
(٤) سورة النور : ٢٢
(٥) سورة المائدة : ١٠١

ولا تجلس إلى أهل الدنايا — فإن خلائق السفهاء تعدى

وقوله أيضاً :

لا تحلفن على صدق ولا كذب — فما يفيدك إلا المأثم الحلف

وقول خالد بن صفوان :

لا تطلبوا الحاجات فى غير حينها — ولا تطلبوها من غير أهلها

وقول الطغرائى :

لا تطمحن إلى المراتب والعلا قبل أن — تتكامل الأدوات والأسباب

وقول أبى الطيب :

لا تلهينك عن معادك لذة — تفنى وتورث دائم الحسرات

وقول الشاعر :

فلا تلزمن الناس غير طباعهم — فتتعب من طول العتاب ويتعبوا

ولا تغترر منهم بحسن بشاشة — فأكثر إيماض البوارق خلب(١)

فلا يعقل أن يقصد من النهى فيما سبق المعنى الحقيقى له ، وإنما يراد منه الإرشاد إلى العمل بالنصائح السابقة .

التهديد : كما يقول الرئيس لأحد العمال : (لا تمتثل أمرى) فذلك تهديد وليس نهيا ، لأن من المعلوم أن الرئيس لا يطلب من العامل ترك تنفيذ أمره إذ المطلوب منه الامتثال ، لا عدم الامتثال ، فكأنه يقول له :

ستلقى جزاءك على عدم امتثالك .

---

(١) إيماض البرق : لمعانه : البوارق : جمع بارقة وهى : البرق، والخلب الذى ليس بعده مطر .

الدعاء : يستعمل النهى فى مقام الدعاء إذا كان على سبيل التضرع من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى :

«ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا»(١) وقول مسلم بن الوليد فى الرشيد :

لا يعدم منك حمى الإسلام من ملك
أقمت قلته من بعد تأويد(٢)

فالنهى مقصود منه الدعاء للخليفة الرشيد بالبقاء لتأييد الإسلام وإعلاء كلمته .

الالتماس : إذا كان النهى من المساوى بدون استعلاء أو تخضع ، كما تقول لمن يساويك فى مرتبتك (لا تبرح مكانك حتى أعود إليك) ومنه قول أبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة .

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى مايذكر له الطعن يشتق

فيتخيل أن له صاحبين على عادة الشعراء ، ويلتمس منهما ألا ينقلا مدائحه للممدوح بالشجاعة والبطولة حتى لا تثيره ذكر الحرب ، لأنه شجاع ، والشجاع يشتاق إلى الحرب متى ذكرت له ، وقول أبى العلاء المعرى :

لا تطويا السر عنى يوم نائبة فإن ذلك ذنب غير مغتفر

التمنى : كقول امرىء القيس :

ياليل طل يانوم زل يا صبح قف «لاتطلع»

(١) سورة البقرة الآية الأخيرة
(٢) قلته : أعلاه ، التأويد : التعويج .

فقوله : « لا تطلع » نهى أريد به تمنى ألا يطلع النهار ليطول اجتماعه بحبيبه .

وقول أبى نواس فى مدح الأمين :

يا ناق لا تسأمى أو تبلغى ملكا تقبيل راحته والركن سيان(١)

متى تحطى إليه الرحل سالمة تستجمعى الخلق فى تمثال إنسان

فانه يتمنى ألا ينزل السأم بالناقة ولا يحل بها التعب ، حتى تبلغ ديار الأمين ، فترى هناك كيف جمع الله تعالى العالم فى صورة إنسان .

التيئيس : كقوله تعالى : « لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون »(٢) .

فيفيد النهى فى الآية الكريمة : التيئيس من قبول اعتذار الكفرة إذ لا جدوى ولا فائدة من اعتذار يقع فى هـــذا اليوم بعد أن استمروا فى الضلال والكفر طوال حياتهم فى الدنيا .

وقوله : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم »(٣) .

أفاد أسلوب النهى فى الآية الكريمة « لا تعتذروا » التيئيس وعدم الجدوى من قبول اعتذارهم حيث جاء هذا النهى بعد بيان حال المنافقين والكشف عن إصرارهم وتماديهم فى الاستهزاء بالله ورسوله وآياته .

وقول أبى الطيب المتنبي فى مدح سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام باسخاهم يدا ختموا

التحقير : كقول أبى الطيب فى هجاء كافور :

---

(١) الراحة : الكف ، الركن : يريد به ركن الحطيم بالكعبة .

(٢) سورة التحريم : ٧ (٣) سورة التوبة : ٦٦

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد(١)

وكقولك لمن يحاول أن يصنع الكرام وهو ليس أهلا لذلك على سبيل التحقير : لا تجهد نفسك فيما تعب فيه الكرام .

التوبيخ : كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن.. الآية(٢) .

وقول الشاعر :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ومن المعاني التي يخرج إليها النهي ؟ التفظيع والتنفير وإبراز قبح وبشاعة الفعل ، وذلك بان ياتى الفعل المنهى عنه مقيدا بقيد يزيد من قبحه وبشاعته ، ولا يراد النهى عن الفعل مقيدا بهذا القيد ، بل النهى عنه مطلقا ، وقد جاء القيد ليصور مدى قبح وبشاعة ذلك الفعل فيكون أدعى للنفور منه والإقلاع عنه من ذلك قوله عز وجل : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ..»(٣).

فلا يراد النهى عن إكراه الفتيات مقيدا بهذا القيد وهو إرادة التحصن من الفتاة ولكن المراد النهى عن الإكراه مطلقا ، وقد جاء هذا القيد ليصور بشاعة وقبح هذا الإكراه ، ووجه التبشيع والتقبيح : أن القيد أبرز الفتاه فى صورة أكرم من سيدها ، فقد آثرت التحصن عن الفاحشة وهو يابى إلا اكراهها عليها(٤).

---

(١) المناكيد : جمع منكود وهو قليل الخير : أى إن العبد لا يصلح إلا بالضرب والإهانة .

(٢) سورة الحجرات : ١٢

(٣) سورة النور ٣٣

(٤) الكشاف : ٣/٦٦

ومن ذلك قوله تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون»(١).

فلا يراد النهى عن أكل الربا فى حال كونه أضعافا مضاعفة ، بل يراد النهى عنه مطلقا ، وقد جاء هذا القيد ليبرز قبح وبشاعة هذه الصورة فيكون ذلك أدعى للنفور والإقلاع عن الفعل .

ومن هذه المعانى التى يفيدها النهى : التسوية كقوله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين»(٢) .

فقد أفاد أسلوبا الأمر والنهى فى الآية الكريمة : التسوية بين وقوع الاستغفار وبين عدم وقوعه ، وأبرز أن وقوعه لن ينفع هؤلاء القوم الذين أصروا على الضلال والفسوق .

وليست تلك كل المعانى التى يستعمل النهى فيها ويخرج إليها ، بل يخرج إلى كثير غيرها مما يستنبط بالنظر ويوقف عليه بالتأمل ، ويحدده السياق ، وتعينه مقامات الأحوال .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٠

(٢) سورة التوبة : ٨٠

التمـــنى

معناه — أدواته — أسراره البلاغية

قال ابن الرومى فى شهر رمضان :

فليت الليل فيه كان شهرا ومر نهاره مـر السحاب

وقال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

وقال :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها عقود مدح فأرضى لكم كلمى

بالنظر فى المتمنى فيما سبق نتبين أنه مستحيل الحصول ، وقد يكون ممكناً غير مطموع فى حصوله لكونه بعيدا كقول مروان بن أبى حفصه فى رثاء معن بن زائدة :

فليت الشامتين به فدوه وليت العمر مد له فطالا

وقول أبى الطيب فى رثاء أخت سيف الدولة :

فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغب

فقد جعلها وشمس النهار شمسين، وتمنى لو أنها بقيت لعموم نفعها وزالت شمس النهار ، فالتمنى فيما سبق بعيد الحصول وإن كان ممكنا ، وأداته هى ليت :. التى وضعت للتمنى أصالة .

فالتمنى : هو طلب شيء محبوب لا يرجى حصوله ، لكونه مستحيلا أو بعيد الحصول . ومن تمنى المستحيل الذى لا يمكن وقوعه قوله عز وجل

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (١) » وقوله سبحانه : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » (٢) .

فالكفرة فى الآية الأولى يتمنون أن يحدث غير الممكن وهو رجوعهم وردهم إلى الدنيا كى يغيروا منهجهم فيكون التصديق والإيمان فى مكان التكذيب والكفر ، والظالم فى الآية الثانية يتمنى أن يكون قد صدق الرسول واتخذ معه سبيلا ، وأن يكون قد ابتعد عن قرناء السوء فلم يتخذهم أخلاء ، وهذا التمنى مستحيل وغير ممكن لفوات الدنيا وحلول يوم الحساب .

ومن الثانى وهو الممكن البعيد الحصول (قوله تعالى) : « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم » (٣)

فالذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون ، وهو شىء ممكن حصوله ولكنه بعيد فهو غير مطموع فيه لبعد مناله .

والأداة الموضوعة له أصلا هى : ليت ، وقد تستخدم أدوات أخرى فى أفادة التمنى لأسرار بلاغية — مثل — لعل — إذا أريد إظهار المتمنى فى صورة الممكن القريب الحصول كقوله تعالى ، حكاية عن فرعون موسى :

« ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ... » (٤)

---

(١) سورة الأنعام : ٢٧ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) سورة القصص : ٧٩ .

(٤) سورة غافر ٣٦ : ٣٧

ففرعون يعلم أن ما يريده بعيد الحصول ، لكن أمعانه فى عتوه وسفهه ورغبته الشديدة فى الوصول إلى ما يريد خيل إليه أنه قريب الحصول ولذلك أمر هامان ببناء الصرح .

فالمطلوب المحبوب إذا كان ممكنا كان طلبه ترجيا ويعبر فيه بلعل وعسى كقوله (تعالى) « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا »(١) .

وقوله « فعسى الله أن يأتى بالفتح »(٢) وقد يعبر فيه بليت مبالغة فى بعد نيله كقوله أبى الطيب المتنبى :

فياليت ما بينى وبـــين أحبتى من البعد إما بينى وبين المصائب

فهو يشكو من بعد الأحبة عنه وقرب المصائب منه ، ويتمنى لو عكس الأمر .. غير أنه لما كان يستبعد تحقيق ما يرجو عبر بصيغة التمنى . ومنه قول الشاعر :

ليت الملوك على الأقدار معطية فلم يكن لدنىء عندها طمع(٣)

فالمطلوب كما ترى مطموع فى حصوله وقد استعملت ليت موضع لعل لإبراز المرجو فى صورة المستحيل مبالغة فى بعد نيله .

هل : ويتمنى بها إذا علم أن المستفهم عنه غير حاصل ، وأنه غـــير

---

(١) سورة الطلاق ١ .

(٢) سورة المائدة ٥٢ .

(٣) أى ليتهم يعطون الشعراء على قدر إجادتهم وعبقريتهم فلا يطمع فيهم دنىء .

مطموع فى حصوله ، كقوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا»(١) أى ليت لنا شفعاء ولا يصح حمله على الاستفهام الحقيق حيث يقتضى ذلك عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا أو نفيا ، وهم كانوا يعلمون ألا شفيع لهم ، فحمل الكلام عليه يؤدى إلى التناقض، وقد عدل عن التمنى بليت إلى التمنى بهل ، لإبراز المتمنى فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه إظهارا لشدة الرغبة فيه ، وهذا المعنى حاصل مع الاستفهام لأن المستفهم عنه ينبغى أن يكون ممكنا غير مجزوم بانتفائه وكأن الكفرة لشدة ندمهم وتحسرهم تمنوا أن يكون الممتنع المحال جائزا وممكنا وقوعه وحدوثه، وهذا ينبىء ويوحى بشدة ما هم فيه من تألم وتحسر .

ومنه قول الشاعر :

أيا منزلى سلمى سلام عليكما
هل الأزمن اللاتى مضين رواجع

فما يأمله مستحيل ، وقد استخدم — هل — موضع — ليت — لإبراز المتمنى فى صورة الممكن القريب الحصول ، لكمال العناية به والشوق إليه .

ومثله قولك : هل من سبيل إلى الخلود فى هذه الدنيا .

لو : ويتمنى بها إذا أريد الإشعار بعزة المتمنى وندرته ، لأنها فى الأصل : حرف امتناع لامتناع كقوله تعالى : « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين»(٢).

---

(١) سورة الأعراف : ٥٣
(٢) سورة الشعراء : ١٠٢

وقول جرير :

ولى الشباب حميدة أيامه   لو كان ذلك يشترى أو يرجع

وقولك : لو أن أيام الصبا تعود ، ولو أن النعيم يدوم .

ويتمنى بحروف التنديم والتحضيض وهى : هلا وألا ولولا ولوما ، فإذا دخلت على الفعل الماضى أفادت التنديم والتوبيخ واللوم كقولك : هلا صليت، ألا ساعدت المحتاج .

وإذا دخلت على المضارع أفادت الحث والتحضيض مثل : ألا ترضى والدك ، هلا تزور جارك .

والسر البلاغى للعدول عن التمنى بليت إلى التمنى بهذه الأدوات :

إفادة التنديم والتوبيخ واللوم فى الماضى ، وإفادة الحث والتحضيض فى المستقبل ،

النــــداء

معناه — أدواته — بلاغته

النداء : هو طلب الإقبال — وأدواته ثمانية — منها الهمزة وأى ، وهما لنداء القريب ، وبقية الأدوات للبعيد وهى : ياوآ، وآى ، وأيا ، وهيا ، ووا — وقد تستخدم الأدوات الموضوعة لنداء القريب فى نداء البعيد لأسرار بلاغية ، كذلك تستخدم الأدوات الموضوعة لنداء البعيد فى نداء القريب للطائف ومعان يمكن استخلاصها والوقوف عليها بالتأمل والتدبر .

فتستعمل الهمزة وأى فى نداء البعيد ، وهما موضوعان لنداء القريب تنبيها على أنه فى القلب لا يغيب عن الخاطر ، فكأنه حاضر الجسم ، كقول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكم فى ربع قلبى سكان

وكقول أبى الطيب المتنبى إلى الوالى وهو فى الاعتقال .

أما لك رقى ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد (١)

دعوتك عند انقطاع الرجاء ... والموت منى كحبل الوريد

فالمنادى بعيد ، وقد ناداه بالهمزه الموضوعة لنداء القريب ، لبيان أنه فى ذهنه لايغيب عن خاطره فكأنه معه بجسمه .

وقد يعكس الأمر فينادى القريب بالأدوات الموضوعة لنداء البعيد لأهداف بلاغية منها :

---

(١) الرق : العبودية — والهبات : العطايا ، واللجين : الفضة والعتق التحرير .

— الإعلام بأنه رفيع القدر ، عالى المنزلة فينزل بعد منزلته منزلة البعد المكانى كقولك : يا ألله وهو قريب منك لا يغيب عنك لحظة ، وقول التلميذ لأستاذه : يا أستاذى — .

وكقول أبى نواس :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم

وكقول الشاعر :

يامن يرجى للشدائد كلها يامن إليه المشتكى والمفزع

وكقوله :

ياصائد الجحفل المرهوب جانبه
إن الليوث تصيد الناس أحدانا(١)

وكقول الشاعر :

أيارب قد أحسنت عودا وبدأة إلى فلم ينهض بإحسانك الشكر

— وإما للإشارة إلى أنه منحط القدر ، وضيع المنزلة ، منخفض المكانة ، فكأنه بعيد عن ساعة الحضور ، كقولك : من أنت ياهذا ؟ لمن هو موجود أمامك ؛ وكقول الفرزدق فى هجاء جرير مفتخرا بآبائه :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وكقوله (تعالى) حكاية لمقال فرعون لموسى عليه السلام :(إنى لأظنك

---

(١) الجحفل: الجيش الكبير — الليوث : الأسود ، وأحدانا جمع واحد وأصله : وحدانا يقول : أنت أشد بطشا من الأسود لأنك تفتك بالجيوش الجرارة ، والاسد لا يفتك إلا بواحد بعد واحد

يا موسى مسحورا)(١) — وإما للإشارة إلى ذهوله وغفلته وعدم انتباهه ، فكأنه غير حاضر فى المجلس ، كقول الشاعر :

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت ؟

وكقوله :

يأيها السادر المزور من صلف   مهلا فإنك بالأيام منخدع

وقول سوار بن المضرب :

يأيها القلب هل تنهاك موعظة
أو يحدثن لك طول الدهر نسيانا

وكقول أبى العتاهية :

أيا من يؤمل طول الحياة   وطول الحياة عليه خطر
إذا ما كبرت وبان الشباب   فلا خير فى العيش بعد الكبر

إلى غير ذلك من المعانى التى يحددها السياق .

وقد يحذف حرف النداء حيث يقتضى المقام الإيجاز كما فى قوله (تعالى) : « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين »(٢) .

فحذف حرف النداء من الآية الكريمة لاقتضاء المقام حذفه ، وذلك لما وقف العزيز على حقيقة الأمر وتبين له خطأ امرأته أصبح فى موقف يقتضى الإيجاز وطى الكلمات لما فوجىء به ولما اعتراه من حزن وأصابه من ألم ، فكان حذف حرف النداء منبها إلى تلك الحال .

---

(١) سورة الإسراء : ١٠١
(٢) سورة يوسف : ٢٩

وقد تخرج صيغ النداء عن معناها الحقيق فى طلب النداء إلى معان أخر تستفاد من القرائن ، منها .

التحسر والتوجع : كما فى قوله (تعالى) :(ياليتنى كنت ترابا)(١) .

وكقول الشاعر :

أيا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

وقول الآخر :

أيا منزلى سلمى سلام عليكما
هل الأزمن اللاتى مضين رواجع

وكقوله :

دعوتك يابنى فلم تجبنى فردت دعوتى يأسا عليا

وقوله :

يادار عاتكة حييت من دار سيرت فيك وفيمن فيك أشعارى

الزجر : كقول الشاعر :

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح لما ارتمت ولا اتقيت ملاما

وكقوله :

أفؤادى متى المتاب ألما تصح والشيب فوق رأسى ألما

الإغراء : كقولك : لمن أقبل يشكو الظلم — يامظلوم تكلم فليس المراد طلب الاقبال ، لأنه حاصل ولا معنى لطلب الحاصل ، وإنما المراد إغراؤه وحثه على زيادة التظلم وبث الشكوى بمعونة المقام وكقولك :(ياشجاع أقدم — لمن يتردد فى منازلة العدو) .

---

(١) سورة النبأ : ٤٠

الاختصاص : كقولك : على أيها الكريم يعتمد ، فليس المراد بالنداء هنا طلب الإقبال لأن المتكلم لا يطلب إقبال نفسه، إنما هو يقصد اختصاصه بالكرم .

المسكنة والتواضع : كقولك : إنى أيها العبد فقير إلى عفو ربى .

الاستغاثة : نحو : « يالله من ألم الفراق، فلا يراد به حقيقة النداء ، وإنما المراد منه الاستغاثة بالله تعالى .

التعجب : كقولك : (ياللماء) عند مشاهدة جريه أو كثرته ، تعجبا منه ، فكأنه لغرابة ما يرى يدعوه ويستحضره .

ومن إفادة النداء التعجب قوله تعالى : « قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب »[1]

فقد أفاد النداء فى : « ياويلتى » تعجب سارة من ولادتها فى هذه السن وقد صار بعلها شيخا كبيرا .

---

(١) سورة هود : ٧٢

الاستفهام

معناه — أدواته — أسراره البلاغية

أطالب أنت أم عامل ؟ — أفي البيت تستذكر أم في الحديقة ؟ — أنصا حفظت أم قصين ؟ — أجوا سافر أخوك أم بحرا ؟ — أيوم الاثنين تزور صديقك أم يوم الجمعة ؟

بالتأمل فيما سبق من الأسئلة يتبين لنا أن كلا منها يطلب به السؤال عن شيء غير معلوم ، أي يطلب به العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل ، بأدوات خاصة ، والأداة فيما سبق هي الهمزة ، كما تدرك أن السائل فيما مضى كان مترددا بين شيئين ويطلب تعيين أحدهما، ولذلك يجاب بتحديد المسئول عنه فيقال : أنا طالب ، وفي البيت أستذكر ، وطائرا سافر أخي ، كما تدرك أن المسئول عنه ولي الهمزة ووقع بعدها مسندا إليه أو مسندا أو مفعولا أو حالا أو ظرفا أو غير ذلك ، وقد يتأخر إن وجدت هناك قرينة تدل عليه ، كقولك : أكافأت خالداً أم محموداً ؟ فقد ولي الفعل الهمزة لكن المسئول عنه هو المفعول ، والذي دل على ذلك وجود المعادل بعد أم . وهذا الذي استخدمت الهمزة في السؤال عنه ، وهو العلم بالطرفين مع عدم القطع بواحد منهما يسمى بالتصور ، وقد تستخدم الهمزة حيث يكون الجهل التام بالمسئول عنه كقولك : أتتحرك الأرض ؟ أيصدأ الذهب ؟ فالسائل هنا يجهل النسبة من أساسها ويريد الوقوف عليها ، ولذلك يجاب عليه بالإثبات أو بالنفي فيقال : نعم أو لا ، وتلاحظ أن الهمزة هنا لم يأت معها معادل على خلاف السابقة ، وهذا الذي استخدمت فيه الهمزة يسمى بالتصديق .

فالهمزة تستعمل للتصور وللتصديق ، والتصور كما علمت هو إدراك

المفرد مسنداً إليه أو مسنداً أو شيئاً من المتعلقات ، ويجب أن يلى الهمزة فى التصور المسئول عنه ويجوز تأخيره إن وجدت هناك قرينة تدل عليه .

والتصديق هو : إدراك وقوع النسبة أو عدم وقعها ، وهمزة التصديق يمتنع معها ذكر المعادل .

وإذا كانت الهمزة تستخدم فى التصور والتصديق فإن هل وهى أيضا من أدوات الاستفهام — تستخدم فى التصديق فقط فيقال هل يعقل الحيوان؟ هل يحس النبات ؟ هل ينمو الجماد ؟ والإجابة تكون أثباتا أو نفيا بنعم أو لا ، واقتصارها فى الاستعمال على التصديق يمنع من ذكر المعادل معها ، ولهذا فمن الخطأ أن يقال : هل استذكرت أم نمت ؟ هل قدم إليك والدك أم عمك ؟ لما ينشأ من تناقض وتضارب فى الجمع بين هل وأم فى أسلوب واحد ، فهل تفيد أن السائل جاهل بالحكم لأنها لطلبه ، وأم تفيد أن السائل عالم به ، وإنما يطلب تعيين أحد الأمرين . فيؤدى الجمع بينهما إلى التناقض . كما يؤدى اختصاصها بالتصديق إلى ضعف استعمالها فى كل تركيب هو مظنة العلم بحصول النسبة ، وهو ما يتقدم فيه المعمول على العامل : مثل : هل فؤاداً كافأت؟ إذ أن تقديم المفعول على الفعل والفاعل وإيلاءه هل ، يفيد أن المكافأة واقعة لايشك فيها وأن الشك والسؤال عمن قدمت إليه تلك المكافأة أهو فؤاد أم غيره ؟ وذلك لايناسب هل ، لأنها لطلب التصديق بالحكم ، فالحكم فيها غير معلوم ، وإلا لم يستفهم عنه ، فيؤدى الجمع بينهما فى تركيب واحد إلى التناقض .

* * *

بقية أدوات الاستفهام

وللاستفهام أدوات أخر غير الهمزة وهل تفيد جميعها التصور منها :
ما : وهى نوعان : الأولى: ما يطلب به شرح الاسم وبيان مفهومه الإجمالى مثل : ماالعسجد ؟ فيجاب بأنه الذهب ، وماالإنسان ؟ فيجاب بأنه بشر .

الثانى : ما يطلب به الحقيقة والماهية مثل: ما الإنسان ؟ فيجاب بأنه: حيوان ناطق .

من : ويطلب بها تعيين ذى العلم باسمه الخاص مثل : من أصدر أمر العبور ؟ فيقال : الرئيس محمد أنور السادات — أو بالوصف المعين مثل : من تصدر طلاب الكلية العام الماضى؟ فيقال : الطالب التقى الذى لم يتخلف محاضرة واحدة .

أى : ويسأل بها عما يميز أحد الشيئين أو الأشياء المشتركة فى أمر من الأمور مثل : أى الرجلين أو الرجال عندك ؟ فالرجلان أو الرجال اشتركوا فى وصف الرجولة ، وأحدهما محكوم عليه بالظرفية ، ولكن لم يتميز بعينه عند السائل ، والمميز لأحد الشيئين أو الأشياء هو ما يذكره المجيب كأن يقول : فلان مثلا ، وهى بحسب ما تضاف إليه ، فيسأل بها عن الزمان والمكان والحال والعدد ، والعاقل غير ذلك .

كم : ويسأل بها عن العدد المبهم نحـــو : كم كتابا قرأت ؟ تريد : أعشرين أم ثلاثين ؟ وكم صفحة كتبت ؟ تريد : أثلاثين أم أربعين ؟ وكم جنيها أنفقت ؟ إلى غير ذلك ...

كيف : ويسأل بها عن الحال والصفة التى عليها الشىء نحـو : كيف أخوك ؟ أى على أى حال هو ؟ وكيف قدم إليك صديقك ؟ أى على أى حال

أنى ؟ فيجاب : راكبا أم ماشيا وهكذا . وهى بحسب العوامل فنى نحو : كيف وجدت فلانا ؟ تكون مفعولا أو حالا ، وفى نحو : كيف أنت ؟ تكون خبرا وهكذا ......

أين : ويسأل بها عن المكان: نحو : أين كنت أمس ؟ فيقال فى المكتبة مثلا ، فتكون ظرفا وأين أخوك ؟ فيجاب فى المنزل ، فتكون خبرا .

متى : ويسأل بها عن الزمان . ماضيا كان أومستقبلا ، فيقال فى الماضى متى حضرت ؟ فيجاب : أمس ، وفى المستقبل : متى تعود ؟ فيجاب : بعد شهر أو سنة مثلا .

أيان . ويسأل بها عن الزمان المستقبل خاصة ، فيقال : أيان يثمر هذا الغرس ؟ فيجاب : بعد سنتين مثلا ، وقال تعالى : (أيان مرساها)[١] أى : أيان الزمان الذى ترسو فيه وتستقر — أقريب هو أم بعيد ؟

أنى : ولها استعمالان : أحدهما : أن تكون بمعنى كيف كقوله تعالى : (أنى يكون لى ولد)[٢] ويجب أن يليها الفعل والحالة هذه ، بخلاف كيف ، فلا يجب فيها ذلك .

ثانيهما : أن تكون بمعنى : من أين — كقوله تعالى : (أنى لك هذا[٣]) على معنى : من أين لك هذا الرزق ؟ وليس المراد كيف لك هذا ، بدليل قولها هو من عند الله .

---

(١) سورة النازعات : ٤٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران : ٣٧ .

ولعلك تدرك أن المعانى السابقة معان نحوية ، وقد ذكرت للاستعانة بها فى تفهم الأسرار البلاغية للاستفهام حينما يستعمل فى غير ما وضع له ويراد منه معان آخر ، وهذه المعانى التى يخرج الاستفهام إليها تتمثل فى :

الاستبطاء : كقولك لآخر دعوته ، فأبطأ فى الإجابة ، كم دعوتك؟ فلا يراد بالاستفهام حقيقته ، وهو السؤال عن عدد الدعوات التى وجهتها إليه ، إذ لا يتعلق بذلك غرض ، وإنما المراد منه استبطاء إجابته لدعوتك ، ومنه قول الشاعر :

حتى متى أنت فى لهو وفى لعب　　　والموت نحوك يهوى فاتحا فاه

الاستبعاد :

كقوله تعالى : (أنى لهم الذكرى ؟)(١) فلا يجوز حمله على حقيقة الاستفهام لاستحالته من العالم بخفايا الأمور وظواهرها وإنما المراد : استبعاد تذكرهم — بدليل قوله بعد : (وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه . . .) فكأنه قيل : من أين لهم التذكر والرجوع إلى الحق ، وقد جاءهم رسول يعلمون أمانته ، فأعرضوا عنه .

النفى : كقوله تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(٢) على معنى : ما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ومنه قول الشاعر :

هل الدهر إلا ساعة ثم تنقضى　　　بما كان فيها من بلاء ومن خفض

أى : ليس الدهر إلا ساعة ثم تنقضى ، فالاستفهام مراد به النفى :

---

(١) سورة الدخان : ١٣ .

(٢) سورة الرحمن : ٦٠ .

ومثله قول البحترى :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها
وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها[١]

فالبحترى لا يسأل عن شىء ، وإنما يريد أن يقول : ما الدهر إلا شدة سرعان ما تنجلى وما هو إلا ضيق يعقبه فرج ، فهل للنفى لا لطلب العلم بشىء كان مجهولا . ومنه قول أبى تمام :

هل اجتمعت أحياء عدنان كلها بملتحم إلا وأنت أميرها

وقول أبى الطيب :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

أى : لا يحيط ، فالاستفهام مراد به النفى .

التعظيم : كقول أبى الطيب المتنبى فى الرثاء :

من للمحافل والجحافل والسرى فقدت بفقدك نيرا لا يطلع[٢]
ومن اتخذت على الضيوف خليفة ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

فأبو الطيب لا يريد بالاستفهام حقيقته وإنما يقصد إلى التعظيم والإجلال بإظهار ما كان للمرثى أيام حياته من صفات السيادة والشجاعة والكرم .

ومنه قول الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر[٣]

فهو لا يريد سؤالا ، وإنما يقصد تعظيم نفسه ، بأنه عماد قومه عند الشدائد .

---

(١) الغمرة : الشدة — انجلاؤها : زوالها ، وشيكا : سريعا .
(٢) المحافل : المجامع ، والجحافل : الجيوش .
(٣) الكريهة : الشدة فى الحرب ، والثغر : موضع المخافة من العدو عند حدود البلدان ، ويريد بسداده : سده بالخيل والرجال .

التحقير : كقولك لشخص تعرفه : « من أنت ؟ » فليس الاستفهام محمولا على حقيقته لعدم الجهل بالمستفهم عنه ، فيراد منه إذا التحقير بمعونة المقام وقرينة الحال ومنه قول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

فشبه وعيد عدوه بصوت أجنحة الذباب على سبيل الاحتقار .

ومثله قول أبى العلاء المعرى :

أتظن أنك للمعالى كاسب وخبى أمرك شرة وشنار(١) ؟

الوعيد : كقولك لمن يسيء الأدب : ألم أؤدب فلانا ؟ إذا كان المخاطب المسيء يعلم ذلك التأديب الحاصل منك لفلان ، وأنت تعلم منه ذلك ، وإذا فلا يصح حمله على الاستفهام الحقيقى لعدم الجهل بالمستفهم عنه وإنما يراد منه الوعيد .

التنبيه على ضلال : كقوله تعالى : (فأين تذهبون)(٢) ؟ فلا يراد بالاستفهام حقيقته لأن الله (عز وجل) يعلم ظواهر الأمور وبواطنها وإنما يراد التنبيه على ضلالهم وأنه لا مذهب لهم ينجون منه .

التعجب : كقول أبى تمام :

ما للخطوب طغت على كأنها جهلت بأن نداك بالمرصاد ؟

فهو يتعجب من تراكم الشدائد عليه مع كثرة جود الممدوح وعطاياه .

ومثله قول إحدى نساء العرب تشكو ابنها :

أنشأ يمزق أثوابى يؤدبنى أبعد شيبى يبغى عندى الأدبا ؟

---

(١) الشرة : الشره والحرص ، والشنار : أقبح العيب

(٢) سوره التكوير : ٢٦

فهى تتعجب من قسوة معاملته لها ، وكأنه يريد تأديبها بعدما شاخت وهرمت وترى أن ذلك فيه عجب ومثله قول الشاعر .

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى
ورأى أمـــير المؤمنين جميل؟

فإنه يتعجب من خوفه من الفقر مع وثوقه بجود ممدوحه وبره به .

التسوية : كقوله تعالى : (سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين)(١) ومنه قول الشاعر :

ولست أبالى بعد إدراكى العلا
أكان تراثا ماتناولت أم كسبا؟

التقرير : وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، كقولك : أقرأت هذا الكتاب؟ إذا كنت تعرف قراءته له وتطلب منه الاعتراف بذلك ، وتقول : أأنت الذى كنت أول الناجحين : إذا كنت تعرف ذلك ،وتريد منه الإقرار بأنه هو لاغيره كان كذلك . وتلاحظ أن المقرر به قد ولى الهمزة فكان فى الأول فعل وفى الثانى فاعل ، ومن التقرير بالفاعل قوله تعالى :

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم(٢)) فالاستفهام للتقرير بالفاعل والفعل لاسؤال عنه بدليل الإشارة إليه ، وبدليل قوله عليه السلام فى جوابهم بل فعله كبيرهم هذا . . ولوكان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل .

---

(١) سورة الشعراء : ١٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء : ٦٢

الإنكار : كذلك من المعانى التى يخرج الاستفهام إليها الإنكار ، وهو إما تكذيبى : بمعنى النفى) أى لم يكن أن كان الفعل ماضيا ، ولا يكون إن كان مضارعا كقوله عز وجل : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما)(١) وقوله عز وجل : (أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون ؟)(٢) .

فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم فإنهم يزعمون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله ، وهذا يستلزم أن الله اصطفاهم لنفسه واختصهم بالبنين فكذبهم الله فى كلا الأمرين : أى لم يكن هذا ولا ذاك ، ولذلك جاء الفعل محط الإنكار والياً الهمزة ، ومنه مع الفعل المضارع كقولك : أتشرب الخمر ؟ أتؤذى أباك ؟ وقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل أو إنكار أن يحصل منه ذلك الفعل ، ولا يصح أن يكون الإنكار فيه متوجها إلى الفاعل لأنه قال : (والمشرفى مضاجعى) فذكر مايكون منعا من الفعل ، فلو كان عاجزا عن الفعل ولا يستطيعه لما قال : إنى أمنعه ، لأن المنع يتصور فيمن يجىء منه الفعل ومع من يصح منه لا مع من هو عاجز .

ومنه قوله تعالى : (قال ياقوم أرأيتم أن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)(٣) أى أنكرهكم

---

(١) سورة الإسراء : ٤٠

(٢) سورة الصافات : ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) سورة هود : ٢٨

على قبول الحجة وتقسركم على الاهتداء بها وأنتم كارهون فلا يكون هذا الإلزام ، بل الذى أنا منوط به الإبلاغ ، لا الإكراه .

ولعلك تلاحظ أن التكذيب فيما مضى كان موجها إلى الفعل ولذلك ولى الهمزة كذلك تقول فى إنسان شريف أهو يرتشى ؟ تريد : هو لا يفعل ذلك .

وفى تكذيب المفعول تقول : أمحمداً تضرب ؟ لا تنكر الضرب من من المخاطب وإنما تنكر ضربه لمحمد ومنه قوله تعالى : (أغير الله أتخذ وليا)(١) وقوله سبحانه :(أغير الله تدعون)(٢) فالإنكار التكذيبى ليس موجها إلى الفعل وهو اتخاذ الولى والدعاء وإنما موجه إلى أن غير الله ليس بمثابة أن يتخذ وليا أو يقصد بالدعاء ، ذلك مالا يرضى به عاقل .

وقد يكون الإنكار توبيخيا : أى ماينبغى أن يكون إن كان على أمر وقع فى الماضى كقولك : أعصيت ربك ؟ لمن صدر منه عصيان ، وبمعنى : ما كان ينبغى لك أن تعصيه ، وأتعصى ربك ؟ لمن يرتكب منكراً ، ولمن هم به ولم يقع منه على معنى لا ينبغى أن يحدث منك . أو ان يصدر عنك فى المستقبل .

والغرض من ذلك : تنبيه المخاطب حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل ويرتدع عن فعل ماهم به .

والتوبيخ فيما مضى كان للفعل ولذلك ولى الهمزة وقد يكون للفاعل أو غيرهما إذا قدم على الفعل تقول : أأنت تظلم الضعيف ؟ أصديقك القديم تنساه ؟ أفى الدروس تلهو ؟ أيوم الجمعة لا تذهب إلى المسجد ؟ .

---

(١) سورة الأنعام : ٤

(٢) سورة الأنعام : ٤٠

وقد لوحظ أن الإنكار يتوجه إلى الفاعل لأسباب منها :

١ — أن يكون عاجزاً عن الفعل وليس فى وسعه أن يفعله كقولك أأنت تمنعنى حقى ؟ تنكر عليه أنه يستطيع ذلك لعجزه ولقد وضع نفسه فى غير موضعه .

٢ — أن يكون أصغر همـــة وأحط شأنا من أن يفعله تقول : أهو يعطف على المساكين ؟ أى : هو أقصر همة من ذلك وأقل رغبة فى الخير مما تظن .

٣ — أن يكون أبعد همة وأعلى شأناً من أن يفعله كقولك : أهو يمنع الناس حقوقهم اى هو ارفع همه من ذلك .

عرفت مما سبق أن المقرر به والمنكر يجب إيلاؤه الهمزة فعلا او فاعلا او غيرهما . وقد يتلو الفـــاعل الهمزة ويكون الفعل محط الإنكار والمقصود به ، وذلك حين يحصر فاعل الفعل . أو مفعوله فى واحد فيؤتى بذلك الفاعل أو المفعول عقب الهمزة فيتوجه الانكار إلى الاسم المقدم بحسب الظاهر ، فيلزم من نفيه نفى الفعل ، لأن الفعل إذا نفى فاعله الذى لا فاعل له غيره أو مفعوله الذى لا مفعول له سواه لزم انتفاؤه حتما .

وتلك أبلغ وآكد فى نفى الفعل من الصورة السابقة التى يكون الفعل فيها واليا الهمزة لأن نفى الفعل فيها بطريق الكناية واللزوم فهى بمثابة دعوى بدليلها .

من ذلك قوله عز وجل : (قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق . فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)[1]

---

(١) سورة يونس : ٥٩

فالمقصود نفى الإذن من أصله ، وكان حقه أن يلى الهمزة لكنه قصد التأكيد فى نفيه فعدل إلى ماعدل إليه لأنه لا آذن فى التحليل والتحريم إلا الله فإذا نفى أن يكون الله آذلنا فقد انتفى الإذن .

ومثله قوله عز وجل : (قل آلذين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين)(١)

فالمقصود نفى الفعل وهو التحريم لشىء مما ذكر فكان حقه أن يلى الهمزة لكن ذكر المفعول وجاء به عقب الهمزة ليتوجه الإنكار إليه فيكون أبلغ فى نفى الفعل فكأنه قيل :

لو كان هناك تحريم لكان متعلقا بواحد من هذه الأمور لكن واحدا منها ليس بمحرم فليس هناك إذاً تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام . وتارة إناثها ، وتارة مافى بطون الإناث وينسبون ذلك التحريم إلى الله . فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم .

ومثل ذلك قولك للرجل يدعى أمراً وأنت تنكره : متى كان هذا : ؟ أفى ليل أم نهار ؟ تضع الكلام وضع من سلم أن مايدعيه قد حصل ثم تطالبه ببيان وقته لكى يتبين كذبه إذا لم يقدر ان يذكر له وقتا وإذا انتفى الوقت انتفى الفعل بطريق اللزوم .

وماسبق ليس كل مايخرج الاستفهام إليه ، بل إن ذلك بعضا من المعانى التى يراد بالاستفهام فيها غير معناه الحقيقى فى طلب العلم بشىء مجهول وهناك معان كثيرة غيرها يمكن الوقوف عليها بالتأمل فى دلالات السياق والنظر فى قرائن الأحوال منها :

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٣

الأمر كقوله تعالى : (فهل أنتم منتهون)(١) أى : انتهوا ، والنهى كقوله تعالى : (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)(٢) أى : لاتخشوهم . والتشويق كقوله تعالى : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم)(٣) . والتكثير كقوله تعالى : (وكم من قرية أهلكناها)(٤) إلى غير ذلك .

وقوع الخبر موقع الإنشاء :

الأسلوب الخبرى غير الأسلوب الإنشائى ، وقد أوقفتك فى بداية الكلام على الفرق بينهما ، ولدواع بلاغية فإن الخبر يقع موقع الإنشاء ، من تلك الدواعى :

١ — التفاؤل :

وهو إدخال السرور على قلب المخاطب مثل : ملأ الله صدرك علما — أى : اللهم املأ صدرك بالعلم ، وقد عدل عن صيغة الأمر إلى الماضى دلالة تحقق الوقوع تفاؤلا .

---

(١) سورة المائدة : ٩١
(٢) سورة التوبة : ١٣
(٣) سورة الصف : ١٠
(٤) سورة الأعراف : ٤

٢ — إظهار الحرص على وقوعه :

ويكون ذلك بلفظ الماضى مثلا : رزقنى الله لقاءك أى : اللهم ارزقنى لقاءك ، وقد عدل إلى صيغة الماضى المتحققة الوقوع لشدة رغبته فى اللقاء به و كثرة حرصه عليه .

٣ — الاحتراز عن صورة الأمر المشعرة بالاستعلاء المنافى للأدب :

كما يقول العامل لرئيسه مستأذناً فى مغادرة العمل قبل انتهاء الوقت : يسمح لى الرئيس اليوم بساعة لأذهب مع ابنى إلى الطبيب — أى اسمح لى بساعة .

إلى غير ذلك

الفصل والوصل

لماذا تجيء بعض الجمل معطوفة على ما قبلها ، وتأتى جمل عقب جمل وعبارات تسبقها بدون عطف ؟

سؤال دقيق شغل به علماء اللغة والبلاغة وأولوه قدرا كبيرا من عنايتهم وتفكيرهم ، ويتضمن ذلك المبحث خلاصة ما انتهوا إليه للإجابة عن ذلك السؤال ، ولدقة ذلك المبحث فى تحديد علاقات التراكيب وما بينها من اتفاق أو اختلاف كان فهمه حق الفهم وإدراك أسراره جيد الإدراك غير متيسر إلا لمن كانوا على حظ ودراسة بأسرار اللغة وخفاياها مما جعل « أبا على الفارسى » يذهب إلى أن معرفته وفهم أسراره يعد إحاطة وإلماما بجانب كبير من البلاغة ، وأن من أدرك أسرار ذلك المبحث كان لغيره من مباحث البلاغة أشد إدراكا (١) .

فالوصل : هو عطف بعض الجمل على بعض بالواو خاصة .

والفصل : هو مجيء الجمل فى إثر بعضها بدون عطف .

ولما كان لكل حرف من حروف العطف عدا الواو معنى معين يدرك من خلال العطف به ، ولا يفيد العطف بالواو شيئا أكثر من الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه ، وجه البلاغيون اهتمامهم فى بحث الفصل والوصل إلى العطف بالواو لبيان أسراره دون العطف بالأدوات الأخرى التى يحدد معنى كل حرف منها سر العطف بها .

فالفاء تفيد الترتيب والتعقيب كقولك : كافأنى الرئيس فشكرته ،

---

(١) انظر : عبدالقاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ص : ١٥٤ ط المراغى.

مشيرا بذلك إلى أن شكرك للرئيس أحدث عقب مكافأته لك بلا أدنى تأخير . وتقول : وصل أخى محمد من السفر ثم وصل أخى خالد ، مشيرا بالعطف بثم إلى أن وصول أخيك خالد تم بعد وصول أخيك محمد بفترة من الوقت .

وتقول سأستذكر الليــــلة أو أزور صديقى المريض دالا بالعطف بأو على القيام بواحد من الأمرين دون تعيين ، وعلى هذا نرى أن الوصل بواحد من حروف العطف غير الواو يكون لإرادة معنى ذلك الحرف حيث يقتضى المقام ذلك ، وعند عدم قصد معنى من هذه المعانى وإرادة الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه يكون العطف بالواو كقولك: تفوق على وأسامة ، تريد بذلك مشاركة أسامة لعلى فى التفوق فقط . وتقول : زارنى الليلة أبى وأخى ، تقصد مشاركة أخيك لأبيك فى زيارتك ، ولا تفيد الواو تحديد الوقت الذى كان بين زيارتهما لك . أزاراك معا أم زارك أبوك أولا وأخوك ثانيا ؟ وهل جاءت زيارة الأخ عقب زيارة الأب أم متأخرة ؟ لا يفيد العطف بالواو شيئا من ذلك ولا يدل على أكثر من الجمع بين أخيك وأبيك فى زيارتك لذلك كان العطف بالواو دون بقية حروف العطف من حيث تلمس أسراره وتحديد بواعثه مجال نظر البلاغيين فى : الفصل والوصل .

شرط العطف بالواو : واشترط لقبول عطف بالواو أن يكون بين الجملتين المعطوفتين جهة جامعة أى وجه من وجوه التناسب بين أطراف الجملتين من : المسند إليه والمسند وما يتعلق بهما ، وذلك كالتماثل والاتحاد بين الشعر والكتابة فى كون كل منهما تأليف كلام فى قولك : على يكتب ويشعر .

والتضاد بين القبض والبسط فى قوله عز وجل : « والله يقبض ويبسط

وإليه ترجعون »(١)، ولعدم تحقق التناسب بين الجملتين المعطوفتين بالواو عيب على أبي تمام قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن الهيثم :

لا والذى هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

فقد جاءت الجملة الثانية : « وأن أبا الحسين كريم » معطوفة على الأولى مع مايشاهد من عدم وجود مناسبة ظاهرة بين مرارة النوى و كرم أبي الحسين، مما جعل العطف غير مقبول (٢) .

مواضع الفصل :

بالنظر فى الأساليب التى ساقها «عبد القاهر الجرجانى» المتوفى سنة ٤٧١ أو سنة ٤٧٤ ﻫ والذى يعد بحق أول من حدد معالم ذلك المبحث ووضع له ضوابطه وكان من قبل إشارات ولمحات فى تعليقات البلاغيين تبين لنا أن الفصل يقع بين الجمل فى الأحوال الآتية :

١ — إذا لم يقصد تشريك الجملة للتى تسبقها فى حكمها الإعرابى كقوله تعالى :

« وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ، الله يستهزىء بهم . . »(٣) فلم تعطف جملة « الله يستهزىء بهم » على جملة «

---

(١) سورة البقرة : ٢٤٦

(٢) قوله : (لا) نفى لما ادعته محبوبته فى البيت قبله من انصراف قلبه عنها وتلهيه بغيرها —

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا عنها طلول باللوى ورسوم النوى : الفراق ، الصبر : عصارة شجر مر

(٣) سورة البقرة : ١٤ ، ١٥

« إنا معكم » لأنها . من قول المنافقين وهى واقعة موقع المفعول ، وجملة « الله يستهزىء بهم » من قول الحق سبحانه وتعالى ، فلو عطفت عليها لزم مشاركتها لها فى كونها من كلام المنافقين ، وفى ذلك من الخلط والفساد مالا يخفى .

وكقوله تعالى : « وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون . . . »[١] .

فقد جاء قوله : « ألا إنهم هم المفسدون » مفصولا غير موصول بما قبله لأنه خبر من الله تعالى بأنهم مفسدون ، والذى قبله وهو قوله : « إنما نحن مصلحون » حكاية عنهم ، فلو عطف لزم عليه الدخول فى الحكاية ، ولصار خبراً من اليهود ووصفا منهم لأنفسهم بأنهم مفسدون ، ولصار كأنه قيل « قالوا إنما نحن مصلحون وقالوا إنهم هم المفسدون » وفى ذلك أيضاً من الخلط والفساد ما لا يخفى .

وكقوله سبحانه : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »[٢] .

« فلو عطف » ألا إنهم هم السفهاء « لكان من كلامهم ، ولصار حديثاً منهم عن أنفسهم بأنهم هم السفهاء من بعد أن زعموا أنهم إنما تركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء ، وفى ذلك من التناقض مالا يخفى .

٢ — أن تكون الجملة الأولى مقيدة بقيد زائد على مفهومها ، كالحال أو الشرط أو الظرف ولا يقصد إعطاؤه للثانية كقوله تعالى فى الآيات السابقه .

---

(١) سورة البقرة : ١١ ، ١٢
(٢) سورة البقرة : ١٣

« وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزىء بهم »[1] .

فلم تعطف جملة : « الله يستهزىء بهم على » « قالوا » لأن جملة « قالوا » مقيدة بالظرف المتقدم وهو وقت خلوهم إلى شياطينهم، فلو عطفت جملة : « الله يستهزىء بهم » عليها لشاركتها فى التقييد بالظرف المتقدم فيصبح المعنى: أن الله عز وجل يستهزىء بهم وقت خلوهم إلى شياطينهم فقط، وذلك واضح الفساد لأن استهزاء الله بهم لا ينقطع فى خلوهم وعدم خلوهم إلى شياطينهم كذلك حدث الفصل فى الآيتين الأخيرتين لعدم قصد الإشتراك فى التقييد بالظرف المتقدم ، فإنهم مفسدون فى جميع الأحيان قيل لهم : لا تفسدوا أولا وسفهاء فى كل الأوقات قيل لهم : آمنوا أولا .

٣ — كمال الاتصال :

ويجب الفصل بين الجملتين إذا كان بينهما كمال الاتصال ، وذلك بأن تتحد اتحاداً تاماً ، فتنزل الثانية من الأولى منزلة نفسها وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها ، كما يستغنى الاسم الذى يشتد تعلقه بما قبله بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه به، كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شىء يصلها به، وكالتأكيد الذى لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد ، فإذا قلت: حضر الطالب المتفوق ، وخرج العمال كلهم لم يكن « المتفوق وكلهم » غير الطالب والعمال .

وقد وجب الفصل فى كمال الإتصال، لأن العطف بالواو يقتضى المغايرة بين الجملتين ، ولا مغايرة فيما بينهما كمال اتصال ، فلو عطف « بالواو » لحدث

---

(١) سورة البقرة : ١٤ ، ١٥

التنافي بين ما تقتضيه الواو من المغايرة وما بين الجملتين من كمال الاتصال ، ولكان بمثابة عطف الشيء على نفسه ولا معنى له .

وجوه كمال الإتصـال :

(ا) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، ويقتضي المقام التوكيد لدفع تجوز أو غلط ، كقوله تعالى: « الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه »(١).

فقوله : « لاريب فيه » بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: «ذلك الكتاب» وزيادة تثبيت له ، وبمنزلة قولك : هو ذلك الكتاب ، هو ذلك الكتاب ، فتعيده مرة ثانية لتثبته ، وليس يثبت الخبر غير الخبر .

ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »(٢) .

فقوله تعالى : « لا يؤمنون » تأكيد لقوله : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، وقوله : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم . . . » تأكيد ثان أبلغ من الأول. لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة . وكذلك قوله عز وجل : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله »(٣).

فقد قال : « يخادعون » بالفصل ولم يقـــل : « ويخادعون » لأن هذه

---

(١) سورة البقرة : ١

(٢) سورة البقرة : ٦ ، ٧

(٣) سورة البقرة : ٨ ، ٩

المخادعة ليست شيئاً غير قولهم : « آمنا » من غير أن يكونوا مؤمنين فهو إذا كلام أكد به كلام آخر هو فى معناه وليس شيئاً سواه ، وكذلك قوله عز وجل : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن »(١) .

فقد جاء قوله : « إنما نحن مستهزؤن » مفصولا غير موصول لأن معنى قولهم : « إنا معكم » إنا لم نؤمن بالنبى ﷺ ولم نترك اليهودية ، وقولهم : « إنما نحن مستهزؤن » خبر بهذا المعنى بعينه ، لأنه لا فرق بين أن يقولوا : إنا لم نقل ماقلنا من أنا آمنا إلا استهزاء ، وبين أن يقولوا : إنا لم نخرج من دينكم وإنا معكم ، بل هما فى حكم الشيء الواحد فصار كأنهم قالوا : إنا معكم لم نفارقكم ، فكما لا يكون (إنا لم نفارقكم) شيئاً غير (إنا معكم) كذلك لا يكون « إنما نحن مستهزؤن » غيره .

ومن البين فى ذلك قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً »(٢).

لم يأت معطوفاً نحو : « وكأن فى أذنيه وقراً » ، لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقرهو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع إلا أن الثانى أبلغ وآكد فى الذى أريد . وذلك أن المعنى فى التشبيهين جميعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معه ويكون لها تأثير فيه ، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل ، ولا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقر أبلغ وآكد فى جعله كذلك لأن من لا يصح منه السمع وإن أصغى وأراد أن يستمع أبعد عن أن يتأثر بالتلاوة من الذى يصح منه .

---

(١) سورة البقرة : ١٤
(٢) سورة لقمان : ٧

ووجه منع العطف فى التوكيد : أن التوكيد من المؤكد كالشىء الواحد، فعطف أحدهما على الآخر بمثابة عطف الشىء على نفسه .

(ب) أن تكون الجملة الثانية بدلا من الأولى، والمقتضى للإبدال كون الأول غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية ، والمقام يقتضى اعتناء بشأنه لكونه مطلوباً فى نفسه أوفظيعاً أو عجيباً أو لطيفاً وهو ضربان :

أحدهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من متبوعه كقوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون »(١).

فإن ذلك مسوق للتنبيه على نعم الله تعالى عنـــد المخاطبين وقوله : « أمدكم بأنعام وبنين».. أوفى بتأديته مما قبله لدلالته عليه بالتفصيل بخلاف ما قبله ، فإن دلالته عليه اجمالا وهى بعض مما قبله .

وثانيهما : أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال من متبوعه كقوله تعـــالى : اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون »(٢) .

فإن المراد به : حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، وقوله تعالى: «اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» أوفى بتأدية ذلك، لأن معناه لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة ومنه قول الشاعر :

أقول له ارحل لاتقيمن عندنا   وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

فإن المراد به : كمال إظهار الكراهة لإقامة المخاطب لمخالفة سره لعلانيته وقوله : « لاتقيمن عندنا » أوفى بتأديته .

---

(١) سورة الشعراء : ١٣٢ — ١٣٤
(٢) سورة يس : ٢٠ ، ٢١

ووجه منع العطف فى البدل: أن المبدل منه فى نية الطرح فالعطف عليه كالعطف على غير مذكور .

(ج) أن تكون الجملة الثانية بيانا للأولى لخفائها مع اقتضاء المقام إزالته كقوله تعالى: «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى »(١) فقد فصل جملة : قال عما قبلها لكونها تفسيراً له وبياناً.

وأما الفصل فى قوله تعالى : «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم»(٢) فهو لشدة اتصال الجملة الثانية بالأولى وتعلقها بها من ثلاثة أوجه : وجهين شبيهين بالتأكيد ، ووجه شبيه بالصفة فأحد وجهى كونه شبيهاً بالتأكيد: أنه إذا كان ملكا لم يكن بشراً وإذا كان كذلك كان إثبات كونه ملكا تحقيقاً لامحالة وتأكيداً لنفى أن يكون بشراً ، والوجه الثانى : أن الجارى فى العرف والعادة أنه إذا قيل : ماهذا بشراً وماهذا بآدمى والحال حال تعظيم وتعجب مما يشاهد فى الإنسان من حسن خلق أو خلق أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال : إنه ملك وأنه يكنى به عن ذلك حتى إنه يكون مفهوم اللفظ وإذا كان مفهوماً من اللفظ قبل أن يذكر كان ذكره إذا ذكر تأكيداً لا محالة ، وأما الوجه الثالث الذى هو فيه شبيه بالصفة فهو أنه إذا نفى أن يكون بشراً فقد أثبت له جنس سواه ، إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم لايدخل فى جنس آخر ، وإذا كان الأمر كذلك كان إثباته كونه ملكا تبيينا وتعيينا لذلك الجنس الذى أريد إدخاله فيه وإغناء عن أن تحتاج إلى أن تسأل فتقول: فإن لم يكن بشراً فما هو وما جنسه ؟

ووجه منع العطف فى البيان : أن البيان والمبين كالشىء الواحد، فعطف أحدهما على الآخر بمثابة عطف الشىء على نفسه .

---

(١) سورة طه : ١٢٠ (٢) سورة يوسف : ٣١

٤ — كمال الانقطاع بلا إيهام :

كما وجب الفصل بين الجملتين إذا اتحدتا واتفقتا لكمال الاتصال بينهما فإنه يجب كذلك إذا اختلفتا وتغايرتا وزال الارتباط بينهما ولم يكن فى الفصل بينهما مايوهم خلاف المقصود ويعرف ذلك : « بكمال الانقطاع بلا إيهام » ويجب الفصل له ، لأن العطف بالواو يقتضى المناسبة بين الجملتين ولا مناسبة فيما بينهما كمال انقطاع فلو عطف بالواو لحدث التنافى بين ماتقتضيه الواو من المناسبة ومابين الجملتين من كمال الانقطاع ويتحقق كمال الانقطاع بواحد من أمرين :

(أ) أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى مثل :

لاتغضب والديك يغضب الله عليك ، وهل تعاونى فى دروس البلاغة أعاونك فى دروس النحو ؟ وكقول الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه   فى وجهه شاهد من الخبر(١)

وقول الآخر :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فقد فصل الشطر الثانى عن الأول لاختلافهما خبراً وإنشاء فى اللفظ والمعنى .

(ب) أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء فى المعنى فقط ، كقولهم : « مات على يرحمه الله ، وسافر محمود كتب الله له السلامة ، فهما فى اللفظ خبريتان لكن الثانية منهما إنشاء فى المعنى أريد بها الدعاء على معنى : اللهم ارحمه واللهم اكتب له السلامة ، فلذلك وجب الفصل بينهما .

---

(١) الخلائق : جمع خليقة وهى الطبيعة ، أى أن فى وجه الإنسان من الأمارات والشواهد مايكفى للتعرف على أخلاقه :

٥ — شبه كمال الاتصال :

لما كان شبه الشيء يعطى حكمه صار من موجبات الفصل : شبه كمال الاتصال — وهو أن تصلح الجملة الثانية لأن تكون جواباً تثيره الجملة الأولى ، فتنفصل منها كما يفصل الجواب عن السؤال لشدة الارتباط بينهما، كقوله تعالى : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى »(١) ففصلت جملة : « قلنا . . » عما قبلها لكونها بمثابة جواب تثيره الجملة الأولى ، كأن سائلا سأل : فماذا قالوا له حين رأوه وقد داخله الخوف ؟ فأجيب : « قلنا لا تخف ... » .

ومثله قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
إن السحاب ترجى حين تحتجب

فيصلح الشطر الثانى أن يكون جواباً يثيره الشطر الأول، وكأن سائلا سأل كيف لايحول الحجاب بينك وبين التنعم بخير الممدوح؟ فقال : إن السحاب حين تتأخر عن إنزال المطر ، فإن نظر الناس يتعلق بهـا ، فجاء الشطر الثانى برهاناً ودليلا على ما ادعاه الشاعر فى الشطر الأول وذلك من التشبيه الضمنى الذى يلمح التشبيه فيه من مضمون الكلام .

ومثله قول الشاعر :

قال لى كيف أنت قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

أى : مابالك عليلا أو ماسبب علتك ؟ فأجاب : سهر دائم .

---

(١) سورة طه : ٦٧ ، ٦٨

وقول الآخر :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمنى
معط حياتى لغر بعد ما غرضا[1]
جربت دهرى وأهليه فما تركت
لى التجارب فى ود امرىء غرضا

فقد ذكر فى البيت الأول أنه ضجر من الدنيا وتمنى لو تنقل حياته إلى شخص لم يختلط بالحياة ولم يجرب أحوالها بعد ، وكأن سائلا سأله عن السر فى هذا فأتى البيت الثانى ليجيب عن ذلك فى : أن التجارب ومعاملة الناس جعلته ييأس من وجود الود والوفاء بينهم ، لذلك جاء الشطر الثانى مفصولا عما قبله . ويسمى الفصل لذلك : استئنافاً ، وتسمى الجملة المفصولة : مستأنفة — وقد يتحقق الاستئناف بإعادة اسم ما استؤنف الحديث لأجله مثل : كافأت خالداً ، خالداً جدير بالمكافأة ففصلت الثانية عن الأولى لأنها جواب لسؤال نشأ عنها كأنه قيل : لماذا أكرمت خالداً .

وقد يتحقق بإعادة صفته كقولك . أكرمت عليا صديقك القديم أهل للإكرام وذلك أبلغ من الأول لاشتماله على بيان السبب الموجب لاستحقاقه الإكرام .

٦ — شبه كمال الانقطاع :

وهو أن يكون عطف الجملة الثانية على الأولى موهما لعطفها على غيرها ، وهو غير مقصود لما يترتب على ذلك من إخلال بالمعنى ، وضابطه : أن تسبق جملة بجملتين يصح عطفها على إحداهما لوجود مناسبة بينهما ،

---

(١) غرضت : ضجرت ، والغر : الذى لا تجربة له .

ولا يصح عطفها على الأخرى لما يترتب على هذا العطف من إخلال بالمعنى كقول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم(١)

يريد : أن سلمى مخطئة فى ظنها أنه يبغى بها بدلا ، ولذلك فصل جملة : « أراها » عن جملة : « وتظن سلمى » حفاظاً على هذا المعنى ، والمناسبة حاصلة بين كل من المسند إليه والمسند فيهما(٢) ، ولو لم يفصل لتوهم أنه معطوف على « أبغى » لقربه فيكون حينئذ من مظنونات سلمى ، ويصير المعنى : أن سلمى تظن أنى أبغى بها بدلا وتظن أيضا أنى أراها تهيم فى أودية الضلال ، وليس هذا بمراد، لذا كان الفصل الذى يسمى قطعا لقطعه توهم خلاف المراد .

ويجوز أن يكون الفصل فى ذلك لشبه كمال الاتصال ، على تقدير أن تكون جملة : « أراها » جواباً لسؤال تقديره : كيف تراها فى هذا الظن أمصيبة فى رأيها أم مخطئة ؟ فقال : أراها مخطئة تتخبط فى أودية الضلال .

مواضع الوصل :

وبتتبع البلاغيين للأساليب التى يوصل بعضها ببعض بالواو تبين لهم أن الوصل بينها يتحقق فى المواطن التالية :

١ — إذا قصد إشراك الجملة الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى ككونها

---

(١) أبغى : أطلب — أراها بالبناء للمجهول : أظنها — تهيم : تسير على غير هدى .

(٢) فالجامع بين المسندين : الاتحاد لأن معنى : أراها — أظنها ، وبين المسند إليه فيهما : شبه التضايف ، فهو فى الأولى محب وفى الثانية محبوب ، وكل منهما يشبه أن يتوقف تعقله على تعقل الآخر .

خبر مبتدأ مثل : محمد يعطى ويمنع ، أو حالا مثل : قام محمد يخطب ويشعر أو صفة مثل : جلست مع رجل ينهى ويأمر ، فالوصف فى الجمل السابقة لقصد مشاركتها لما قبلها فى حكمها الإعرابى ، وذلك كعطف المفرد على المفرد لأن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد فى قوله تعالى : « يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها .. »(١) ونرى تحقق التناسب بين المعطوفات السابقة بالتضاد بين : يلج ويخرج ، وينزل ويعرج وذلك التناسب بين المعطوفات فى المفردات يجب توافره بين الجمل التى لها محل من الإعراب ، وعليه قوله تعالى : .. والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون »(٢) .

فالتناسب واضح بالتضاد بين القبض والبسط .

ومن الوصل للتشريك فى الحكم الإعرابى قول أبى العلاء المعرى :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغباً أكل المرار(٣)

فقد وصل الشاعر جملة : « وعلم ساغبا أكل المرار » بما قبلها وهى : « أعبد كل حر » لقصد مشاركتها لها فى حكمها الإعرابى من كونها خبر مبتدأ . وكقول أبى الطيب المتنبى :

والسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب(٤)

---

(١) سورة سبأ : ٢

(٢) سورة البقرة : ٢٤٥

(٣) الساغب : الجائع ، والمرار : شجر مر ، يريد أن حب الحياة يجعل الحر عبداً ويضطر الإنسان إلى تحمل الصعاب .

(٤) النديم : الجليس على الشراب ، ويفضى أى : ينتهى ، يريد : أنه كتوم للسر يضعه حيث لايطلع عليه النديم ولا يكشف عنه الشراب .

فقد وصل جملة : « لايفضى إليه شراب » بما قبلها وهى « لاينالـه نديم » لقصد مشاركتها لها فى حكمها الإعرابى من كونها صفة للنكرة قبلها .

٢ — كمال الانقطاع مع الإيهام :

ومن دواعى الوصل : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء ويترتب على الفصل إيهام خلاف المقصود ، كقولك رداً على من سألك : هل شفى أخوك من مرضه ؟ لا ، وشفاه الله — فقد اختلف الجملتان خبراً وإنشاء من جهة المعنى . لأن « لا » تقوم مقام جملة خبرية تقديرها : لم يشف من مرضه — وجملة : « شفاه الله » وإن كانت خبرية فى اللفظ إلا أنه قصد بها الدعاء للمريض بالشفاء فهى إنشائية معنى ، فاختلفت الجملتان خبراً وإنشاء ولم يفصل بينهما لما يترتب على الفصل من إيهام خلاف المقصود وهو الدعاء على المخاطب لا له — وقد يدفع هذا الإيهام بسكتة لطيفة بين « لا » وما بعدها ، فيستغنى حينئذ عن الوصل بالواو ، فوجوب الفصل فى كمال الانقطاع مع الإيهام إنما يكون إذا اتصل الكلام ، وقد روى أن أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه مر برجل فى يده ثوب فقال له الصديق: أتبيع هذا ؟ فقال الرجل : لايرحمك الله — فقال له الصديق : لاتقل هكذا قل : لا ويرحمك الله — وقد سأل هارون الرشيد رضى الله عنه نائبه عن شىء فرد عليه قائلا : لا وأيد الله الأمير فلما سمع الصاحب بن عباد ذلك قال : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ على خدود الملاح .

٣ — التوسط بين الكمالين :

ومن أسباب الوصـــل : التوسط بين الكمالين : كمال الاتصال وكمال الانقطاع وهو أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء فى اللفظ والمعنى أو فى

المعنى فقط مع وجود المناسبة بينهما ، فمن اتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم »(١) .

فهما متفقتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، وبينهما تناسب التضاد بين : الأبرار والفجار ، ونعيم وجحيم وكقول أبى العتاهية :

قد يدرك الراقد الهادى برقدته
وقد يخيب أخو الروحات والدلج(٢)

وقول بعض الحكماء : العبد حر إذا قنع ، والحر عبد إذا طمع — فقد وصل بين الشطرين فى قول أبى العتاهية ، وبين الجملتين فى قول الحكيم لاتفاقهما فى الخبرية مع وضوح التناسب بينهما .

ومن اتفاقهما فى الخبرية معنى قوله تعالى : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه ...»(٣) فقد عطفت جملة « درسوا » وهى خبرية لفظا ومعنى على: « ألم يؤخذ » وهى خبرية فى المعنى وإن كانت إنشائية على صورة الاستفهام ، وهو استفهام إنكارى بمعنى النفى ، أى : أخذ عليهم ميثاق الكتاب .

ومن اتفاقهما فى الإنشائية لفظا ومعنى قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ... »(٤) فالأوليان أمران والثالثة نهى ، والتناسب ظاهر

(١) سورة الانفطار : ١٣ ، ١٤

(٢) الروحات: جمع روحه اسم بمعنى الرواح وهى السير آخر النهار ، والدلج : جمع دلجة من أدلج إذا سار من أول الليل : أى إن الراقد قد ينال مطالبه بينما يخيب الساعى .

(٣) سورة الأعراف : ١٦٩

(٤) سورة الأعراف : ٣١

بالاتحاد بين المسند إليه فى كل منهما، وبين المسند فى كل منهما: وهو الأكل والشرب وعدم الإسراف .

ومن ذلك قول الحجاج فى خطبة له: اللهم أرنى الغى غيا فأجتنبه وأرنى الهدى هدى فاتبعه ، ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالا بعيداً ، فقد وصل بين جملة « أرنى » الأولى وجملة « أرنى » الثانية وجملة « لا تكلنى » الثالثة لاتفاقهما فى الإنشائية لفظا ومعنى مع وضوح التناسب بينهما . ومن اتفاقهما فى الإنشائية معنى قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا ... »(١) فقد عطفت جملة : « وقولوا » وهى إنشائية لفظا ومعنى على : « لاتعبدون » ، وهى خبرية لفظا إنشائية معنى ، فإنها بمعنى : « لا تعبدوا » .

فتلك مواضع الوصل ، وقد ذكرنا من قبلها مواضع الفصل ، وتدرك أنها من الدقة بحيث لايتنبه لهـا إلا من أوتى حظا من الفطنة والدراية بأسرار اللغة وخفاياها ، ولذا كان ذلك البحث جديراً بقصر البلاغة عليه فى قول أبى على الفارسى: «إنها معرفة الفصل والوصل» وذلك لدقة مسلكه، ولطف مسائله ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحـــد إلا كمل لسائر معانى البلاغة .

---

(١) سورة البقرة : ٧٣

الإيجاز والاطناب والمساواة

تمهيـــد :

من سمات البليغ خطيبا كان أو كاتبا أو شاعرا أن يجى كلامه على قدر الموضوع الذى يتناوله بالكلام أو الكتابة بلا زيادة أو نقصان ،كالطبيب الحاذق الذى يهديه الله إلى تحديد مواطن الداء وما يناسبه من الدواء. وقد عرفت من تعريف العلماء للبلاغة أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته — وأن لكل حال ما يلائمها من الأساليب ، ولكل مقام مقال — فما يقال فى السلم غير ما يقال فى الحرب ، وما يكتب فى التهنئه يختلف عما يكتب فى التعزية ، ومخاطبة المثقفين تختلف عن مخاطبة السوقة والعوام — لذا كان من سمات الكلام البليغ أن يجىء على قدر الحال التى يقال فيها وما تستدعيه ، إيجازاً أو أطنابا أو مساواة .

قال بعضهم لبشار بن برد : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت : قال : وماذاك ؟ قال : بينما تثير النقع وتخلع القلوب بقولك :

إذا ما غضبنا غضبـــة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما

إذا ما أعرنا سيـــدا من قبيلة
ذرا منـــبر صلى علينا وسلما

نراك تقول :

ربـابة ربة البـــيت تصب الخل فى الزيت
لهـا عشر دجاجـات وديك حسن الصوت

فقال بشار : لكل وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، والثانى قلته

فى ربابة جارتى وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهى تجمع لى البيض ، فهذا القول عندها أحسن من :

«قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل» عندك .

وكثيراً ما نجد الشاعر يسهل أحيانا ويلين حتى يشبه شعره لغة الخطاب ، ويخشن آونة ويصلب حتى كأنه يقذف بالصخر ، وذلك مرده إلى الموضوع الذى يتحـــدث فيه ، والطبقة التى ينشدها شعره ، ومن ذلك : « أبو نواس » الذى كان فى خمرياته غيره فى مدائحه ووصفه .

وقد كان إمام البلغاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى فى مراعاة أقدار المعانى وأقدار المقامات وما يناسبها من العبارات ، فعندما كتب إلى ملك فارس اختار أسهل الألفاظ وأوضحها ، ولما كتب إلى « أكيدر » صاحب دومة الجندل فخم الألفاظ وأتى بالجزل النادر ، وذلك لاختلاف المقامين وتفاوت الحالين .

كما كان من سمات بلاغته صلى الله عليه وسلم : مخاطبة الناس على قدر عقولهم بسطا وإطنابا فى مقام الإطناب ، وإيجازا حسنا حيث يحمد الإيجاز ويذم الإطناب .

وللقرآن الكريم المنزلة العليا فى ذلك ، فقد جاء حديثه مع العرب إشارة ووحيا ، ومع بنى اسرائيل مبسوطا ومشروحا لقلة فهمهم .(١)

وبعد هذا التمهيد نبدأ الحديث عن الإيجاز والإطناب والمساواة من حيث : قيمة كل منها ، والمقامات التى تستعمل معها ، ومعناها وبعض ما ورد من الأساليب العربية عليها بادين بالإيجاز .

---

(١) انظر : الصناعتين أبو هلال العسكرى ص : ١٤٤

الإيجاز :

من السمات التى تذكر للمجيدين من البلغاء ، لذا كان النوع العالى منه مما اختص به الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهو المعروف «بجوامع الكلم» . ويحدثنا «ضياء الدين بن الأثير» عن قيمته فيقول :«هو نوع من الكلام شريف ، لايتعلق به إلا فرسان البلاغـــة . . . لعلو مكانه، وتعذر إمكانه» (١)

وقد قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز ؟ قال : وما الإيجاز ؟ قال : حذف الفضول وتقريب البعيد ، وقالت بنت الحطيئة لأبيها : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ فقال : لأنها فى الآذان أولج ، وبالأفواه أعلق ، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه و كرم وجهه :- ما رأيت بليغا قط إلا وله فى القول إيجاز . (٢)

ولما كانت للإيجاز تلك القيمة كان المعنى الذى يعبر عنه بموجز من القول أدخل فى البلاغة من تقديمه فى عبارات مطولة ، ولذا يقول ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ : «إذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء فى السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر فلابد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكا إلى المقصد ، فإن تقارب اللفظان فى الإيجاز وكان أحدهما أشد إيضاحا للمعنى

---

(١) انظر : المثل السائر لابن الأثير ٢: ٢٦٥ تحقيق الدكتورين : الحوفى وطبانه .

(٢) انظر : الصناعتين ص : ١٣١

كان بمنزلة تساوى الطريقين فى القرب وزيادة أحدهما بالسهولة ، ولهذا قدموا قول الشماخ بن ضرار :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

على قول بشر بن أبى حازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوما
وقصر مبتغوها عن مداها
وضاقت أذرع المثرين عنها
سما أوس إليها فاحتواها (١)

وإن كان ابن أبى حازم سبق الشماخ إلى المعنى ، إلا أنه جاء به فى بيتين واختصره الشماخ فأتى به فى بيت واحد (٢) .

وللإيجاز مقاماته التى يحسن فيها: كالشكر والاعتذار والتعزية والعتاب والمكاتبات والأشعار والمخاطبات .

معنى الإيجاز : هو أن تتضمن الألفاظ القليلة معانى كثيرة مع الوفاء وبدون إخلال ، لذلك خرج من الإيجاز لقصور ألفاظه عن الوفاء بالمعنى المراد قول الحارث بن حلزه اليشكرى :

والعيش خير فى ظلال النوك ممن عاش كدا (٣)

---

(١) مبتغوها : طالبوها — ومداها : غايتها — والمثرون : أصحاب الثروة والغنى واحتواها : اشتمل عليها .

(٢) سر الفصاحة

(٣) النوك بضم النون : الحمق والجهل ، والعيش المكدود : ما كان فيه شدة وجفاء .

يريد الشاعر : أن العيش الناعم في ظلال الجهل والحمق خير من العيش الجاف الشاق في ظلال العقل ، ولا يفي البيت بهذا المعنى الذي يريده الشاعر ، إذ لا يفيد أكثر من أن العيش ناعماً أو خشنا في ظلال الجهل أخير من عيش المكدود عاقلا كان أو جاهلا فاعتبار « الناعم » في الشطر الأول ، وفي ظلال العقل في الشطر الثاني لا دلالة عليهما دلالة واضحة .

وبذلك نرى أن الإيجاز الموسوم بالبلاغة هو ما كان محيطاً وشاملا للمعنى المراد .

نوعا الإيجاز :

١ — إيجاز قصر :

إذا تضمنت الألفاظ القليلة معاني كثيرة بدون حذف شيء من التركيب سمي الإيجاز إيجاز قصر — لحدوث الاقتصار في العبارة مع كثرة المعنى — وهذا الضرب من إيجاز القصر مطمح أنظار البلغاء ومحط براعة الأفذاذ منهم ، وفيه تتفاوت أقدارهم ، وتتفاضل مراتبهم ، ومنه قول الله عز وجل : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى[1] .

فقوله : فغشيهم من اليم ما غشيهم » من جوامع الكلم التي تتضمن مع قلة ألفاظها كثيراً من المعاني ، أي : غشيهم من الأمور الهائلة والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله ولا يحيط به غيره ، وقوله سبحانه : « خذ العفو وأمر بالمعرف وأعرض عن الجاهلين[2] .

(١) سورة طه : ٧٧ ، ٧٨ (٢) سورة الأعراف : ١٩٩

لجمع فى الآية جميع مكارم الأخلاق ، لأن فى الأمر بالمعروف صلة الرحم ومنع اللسان عن الغيبة وعن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات وغير ذلك ، وفى الأعراض عن الجاهلين : الصبر والحلم وغيرها ، وقوله عز وجل : « أولئك لهم الأمن(١) .

فيدخل تحت الأمن جميع المحبوبات ، إذ نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت ، وزوال النعمة ونزول النقمة ، وغير ذلك من أصناف المكاره ، وقوله سبحانه : « ألا له الخلق والأمر »(٢) .

فإنهما كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء ، وقد روى أن ابن عمر رضى الله عنهما سمعها فقال : « من بقى له شىء فليطلبه » وقوله سبحانه : « .. والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس .. »(٣) .

فقد جمع أنواع التجارات وصنوف المرافق التى لا يبلغها العد والإحصاء ، وقوله سبحانه : « . ليشهدوا منافع لهم ... »(٤) .

جامعاً بذلك منافع الدنيا والآخرة ، وقوله عز وجل : « أخرج منها ماءها ومرعاها »(٥) .

دالا بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعاً للناس من

---

(١) سورة الأنعام : ٨٢
(٢) سورة الأعراف : ٥٤
(٣) سورة البقرة : ١٦٤
(٤) سورة الحج : ٢٨
(٥) سورة النازعات : ٣١

الخشب والشجر والحطب واللباس والنار والملح والماء . . والدليل على أنه أراد ذلك كله قوله تعالى : « متاعا لكم ولأنعامكم . . »(١) .

وقوله : « . . . وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين »(٢) .

جامعاً بذلك من نعيم الجنة مالا تحصيه الأفهام ، ولا تبلغه الأوهام ، وقوله سبحانه : « . . . ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »(٣) ، فقد جمع بذلك الأشياء كلها حتى لا يشذ منها شيء على وجه الأرض .

ومن الإيجاز بالقصر فى كلامه ﷺ قوله : «حبك الشيء يعمى ويصم» وقوله : « إياكم وخضراء الدمن ، قيل وماذاك يارسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحراً » .

ومما ورد منه فى كلام العرب قول بعضهم : أما بعد ، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك ، واستح من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدر قدرته عليك — وقيل لأعرابى يسوق مالا كثيراً لمن هذا المال ؟ فقال : لله فى يدى(٤) .

« ولكم فى القصاص حياة »(٥) .

ذكرت كل كتب البلاغة الآية السابقة شاهداً واضحاً على إيجاز القصر ، ومعناها : أن الإنسان إذا تأكد أنه متى قتـــل وقع القتل به ارتدع عن

---

(١) سورة النازعات : ٣٣

(٢) سورة الزخرف : ٧١

(٣) سورة الأنعام : ٥٩

(٤) الصناعتين : ص ١٣٢ وما بعدها .

(٥) سورة البقرة : ١٧٩

الإقدام على القتل ، فيرتفع بالقتل الذى هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض فكان ارتفاع القتل حياة لهم ، وذكر علماء البلاغه وجوها متعددة فى تفضيل قول الله تعالى على عبارة العرب : « القتل أنفى القتل » التى كانوا يعدونها أبلغ قول فى هذا المعنى .

ومن هذه الوجوه :

١ — أن القول الكريم أكثر إيجازا من القول العربى المأثور ، إذ أن عدد حروفه عشرة ، بينما نرى القول المأثور أربعة عشر حرفا ، وماكان أقل حروفا مع الوفاء بالمعنى فهو أبلغ .

٢ — فى القول الكريم التصريح بالمطلوب وهو الحياة التى نص عليها ، فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص ، أما القول المأثور فإنه يدل على المطلوب لزوما من حيث إن نفى القتل يستلزم الحياة .

٣ — ما يفيده تنكير « حياة » من التعظيم ، أى لكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة ، أو النوعية ، أى لكم فى القصاص نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة للمقتول الذى يقصد قتله ، والقاتل بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود .

٤ — إن النص الكريم عام مطرد ، إذ أن القصاص مطلقا فى كل وقت ، ومع كافة الأفراد المكلفين سبب للحياة أما النص العربى فليس فى ظاهره مطرداً ، إذ ليس كل قتل أنفى للقتل ، بل تارة يكون أنفى له إن كان على وجه القصاص ، وأخرى يكون أدعى له إن كان القتل ظلما .

٥ — خلو النص الكريم من التكرار بخلاف النص المأثور .

٦ ـ عدم حاجة النص الكريم إلى تقدير محذوف ، بخلاف القول المأثور الذى يحتاج لتقدير : « القتل أنفى للقتل من تركه » .

٧ ـ فى النص الكريم حلية الطباق أى : الجمع بين متضادين كالقصاص وحياة فإن القصاص مقابل للحياة فى الجملة باعتباره سببا فى الموت المقابل للحياة ، بينما يخلو النص العربى من هذه الحلية البلاغية .

٨ ـ جعل القصاص المنبع والمعدن للحياة بإدخال « فى عليه[1] .

٩ ـ فى النص الكريم حسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل عن الخروج من اللام إلى الهمزة[2]

٢ ـ إيجاز حذف[3] .

وهو الذى تتضمن فيه الألفاظ القليلة كثيراً من المعانى بحذف شىء من التركيب ، والمحذوف أما : جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة .

---

(١) بغية الإيضاح ٢ : ١٣٦ ، ١٣٧

(٢) الصناعتين ص : ١٣١

(٣) يقول عنه ابن الاثير : « إنه عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، ذاك أنك ترى فيه ترك الذكر افصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون مبينا إذا لم تبن . وشرط الحذف : أن يوجد فى الكلام دليل يدل على المحذوف ويشير إليه وأن يكون هناك سر بلاغى يرجع الحذف على الذكر .

حذف جزء الجملة :

من ذلك : حذف المضاف وإقامة المضاف إليه وإمقامه كقوله عز وجل : « واسأل القرية »(١) أى أهلها ، وقوله سبحانه : «الحج أشهر معلومات »(٢) أى وقت الحج ، وقوله عز وجل : « .. حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم »(٣) أى تناول طيبات أحل لهم تناولها ، وقوله : « .. لمن كان يرجو الله »(٤) أى رحمة الله ، وقوله : « وجاهدوا فى الله حق جهاده . . . »(٥) أى فى سبيل الله .

أو حذف المضاف إليه ، كقوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناهـا بعشر . . »(٦) أى بعشر ليال وقوله : « لله الأمر من قبل ومن بعد »(٧) ، أى من قبل ذلك ومن بعده .

ومنه : حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه كقوله عز وجل : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب »(٧) أى حور قاصرات الطرف .

(١) سورة يوسف : ٨٢
(٢) سورة البقرة : ١٩٧
(٣) سورة النساء : ١٦٠
(٤) سورة الأحزاب : ٢١
(٥) سورة الحج . الآية الاخيرة
(٦) سوره الأعراف : ١٤٢
(٧) سورة الروم : ٤
(٨) سورة ص : ٥٢

وقوله : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا .. »(١) أى عملا صالحا ، وقوله : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك . . »(٢) أى قوم دون ذلك .

ومنه : حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، كقوله تعالى : وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا »(٣) بحذف الصفة ، أى كان يأخذ كل سفينة سليمة غصبا ، ويدل على المحذوف قوله : « فأردت أن أعيبها » فإن عيبه إياها لم يخرجها عن كونها سفينة ، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب ، فحذفت الصفة لأنه تقدمها ما يدل عليها .

ومن ذلك فى كلام رسول الله ﷺ : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » أى : لا صلاة كاملة ، وقد علم جواز صلاة جار المسجد فى غير المسجد من غير الحديث ، فعلم أن المراد به الفضيلة والكمال .

ومن الإيجاز بحذف جزء الجملة : حذف الشرط والاستغناء عنه بالجواب كقوله تعالى : يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون »(٤) فالفاء فى قوله : « فاعبدون » جواب شرط محذوف لأن المعنى : إن أرضى واسعة فإن لم تخلصوا لى العبادة فى أرض فأخلصوها فى غيرها ، ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص .

ومن ذلك قولهم : « الناس مجزيون بعملهم إن خيرا فخير وإن شراً فشر» أى : إن فعل المرء خيراً جزى خيراً ، وأن فعل شرا جزى شرا

(١) سورة مريم : ٦٠
(٢) سورة الجن : ١١
(٣) سورة الكهف : ٧٩
(٤) سورة العنكبوت : ٥٦

أو حـــذف الجواب والاستغناء عنه بالشرط ، وحذفه إما لمجرد الاختصار اعتماداً على القرينة كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون »(١) بحذف الجواب وتقديره : « أعرضوا » بدليل مابعده وهو قوله : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنهـــا معرضين »(٢) . وإما للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، قصداً للمبالغة حتى تذهب نفس السامع معه كل مذهب كقوله عز وجل : ولو ترى إذ وقفوا على النـار ... »(٣) وقوله : « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ... »(٤) وقوله: « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ... »(٥) فإن التقدير في ذلك كله : « لرأيت أمراً عظيما لا يدرك فظاعته » .

ومنه حذف القسم وجوابه ، لحذف القسم كقولك : « لأفعلن » أى : والله لأفعلن أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها ، وحذف الجواب كقوله سبحانه : « ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب »(٦) فإن معناه : ق . والقرآن المجيد لتبعثن والشاهد على ذلك مابعده من ذكر البعث في قوله : « أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد »(٧) .

---

(١) سورة يس : ٤٥
(٢) سورة يس : ٤٦
(٣) سورة الأنعام : ٢٧
(٤) سورة الأنعام : ٣٠
(٥) سورة السجدة : ١٢
(٦) سورة ق : ١ — ٣
(٧) سورة ق : ٤

حذف الجملة :

وقد يكون المحذوف جملة ، والجملة المحذوفة إما أن تكون مسببا ذكر سببه كقوله تعالى : « .. ليحق الحق ويبطل الباطل .. »(١) أى : ليثبت الإسلام ويظهره ، ويمحو الكفر ويمحقه ، فاكتفى بالسبب وهو ماسبق عن المسبب وهو فعل الله مافعل من كسر قوة أهل الكفر مع وفرتهم وإظهار المسلمين عليهم مع قلتهم ليحق الحق ويبطل الباطل .

أو تكون الجملة المحذوفة سبباً ذكر مسببه كقوله تعالى: « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم .. »(٢) أى : فامتثلتم فتاب عليكم ، فإن الامتثال المحذوف سبب فى قبول التوبة ، وقوله عز وجل : « .. فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت .. »(٣) أى : فضرب فانفجرت ، فاكتفى بالانفجار وهو المسبب عن السبب وهو الضرب إشعاراً بسرعة الامتثال .

حذف أكثر من جملة :

وقد يكون المحذوف أكثر من جملة ، من ذلك قوله عز وجل : « .. أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق .. »(٤) أى : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له : « يايوسف » وقوله

---

(١) سورة الأنفال : ٨
(٢) سورة البقرة : ٥٤
(٣) سورة البقرة : ٦٠
(٤) سورة يوسف : ٤٥ ، ٤٦

عز وجل « فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا »(١) أى : فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم . وقوله سبحانه : « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين »(٢) أى : فأتياه فأبلغاه ذلك فلما سمعه قال : « ألم نربك » ، وقوله : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »(٣) .

فتقدير المحذوف : ثم إنهم تجهزوا وساروا إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقوله تعالى : « وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها . . »(٤) .

فالمحذوف هو جواب الاستفهام لأنها لما قالت : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم » ؟ احتاج إلى جواب ايلتظم بما بعده من رده إلى أمه ، والجواب : فقالوا نعم ، فدلتهم على امرأة لجىء بها وهى أمه ، ولم يعلموا بمكانها فأرضعته وهذه الجملة الثانية أعنى قوله تعالى : « فرددناه

---

(١) سورة الفرقان : ٣٦

(٢) سورة الشعراء : ١٦ — ١٨

(٣) سورة يوسف : ٩٦—٩٩

(٤) سورة القصص : ١٢ ، ١٣

إلى أمه ، تدل على المحذوف ، لأن رده إلى أمه لم يكن إلا بعد رد الجواب على أخته . ودلالتها إياهم على امرأة ترضعه(١) .

فندرك مما سبق قيمة الإيجاز وروعته ، وأن الحذف أكسب الأسلوب بهاء وأضفى عليه جمالا لأنه حذف لفائدة تقتضيه المقامات وتستدعيه الأحوال ولذلك كان جديراً بوصف ابن الأثير له بأنه عجيب الأمر شبيه بالسحر — وننتقل بعد ذلك لمناقشة الفن الثانى الذى يقابل الإيجاز وهو :

الإطناب :

لايقل الإطناب الذى يقع فى موقعه المناسب قدرا عن الإيجاز الذى يستخدم فى المقام الذى يتلاءم معه ، لذاكان من محاسن الشعراء والكتاب والخطباء إذا جاء فى مكانه ونزل فى موضعه ، وفى ذلك يقول أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ : « المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالإشباع ، والشفا لايقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ، ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة إلا بالاستقصاء(٢) .

أما المواطن التى يحسن فيها الإطناب فمنها : المواعظ ، والترغيب فى الطاعة والنهى عن المعصيه ، وفى المواقف الجامعة عند مخاطبة عامة الناس ، ومن لايسبق ذهنه إلى تصور المعانى »(٣) .

ويعرف الإطناب بأنه : زيادة الألفاظ عن المعانى لفائدة ، فإن

---

(١) انظر . المثل السائر ٢ : ٢٨٩ ومابعدها .

(٢) انظر : الصناعتين ص : ١٤١

(٣) المرجع السابق ص : ١٤٢

لم تكن الزيادة لفائدة ، ولم يكن الزائد متعينا كان ذلك تطويلا ، كما فى قول عدى بن زيد :

وقددت الأديم لراهشيه ‏ ‏ ‏ ‏ وألفى قولها كذباً وميناً(١)

فإن الكذب والمين شىء واحد .

وإن كان الزائد متعينا سمى ذلك حشواً ، وهو إما مفسد للمعنى كقول أبى الطيب :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى
وصبر الفتى لولا لقاء شعوب(٢)

فإن لفظ « الندى » حشو يفسد المعنى ، لأن المعنى : إنه لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح فى الشجاعة والصبر دون الندى ، لأن الشجاع لو علم أنه يخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل ، كذلك الصبر لتيقن الصابر زوال المكروه فى العادة على تقدير الخلود فلا يكون لصبره فضل أيضاً ، بخلاف باذل ماله ، فإنه إن علم أنه يموت هان عليه بذله ، ولهذا يقول إذا عوتب فيه : كيف لا أبذل ما لا أبقى له ؟ فلو علم أنه يخلد ثم جاد بماله كان جوده أفضل ، فالشجاعة لولا الموت لم تحمد ، والندى بالضد .

وإما غير مفسد للمعنى ، كقول أبى العيال الهذلى :

---

(١) سر الفصاحة ص : ١٩٩ — وقددت أى : قطعت ، والأديم : الجلد ، والراهشان : عرقان فى باطن الذراع .

(٢) الندى : الكرم ، شعوب : علم جنس المنية وهـ [illegible]

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصب(١)

فإن لفظ « الرأس » فيه حشو لافائدة فيه ، لأن الصداع لا يكون فى غير الرأس ، لكنه ليس مفسدا للمعنى .

وكقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غد عمى

فقوله : « قبله » مستغنى عنه غير مفسد للمعنى .

وجوه الإطناب :

وللإطناب وجوه متعددة منها :

الإيضاح بعد الإبهام :

ليرى المعنى فى صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن فى النفس فضل تمكن ، فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته مفصلا وموضحاً فإذا أتى بعد ذلك موضحا تمكن فيها فضل تمكن وكان شعوره به أتم ، ومن ذلك قوله عز وجل : «قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى »(٢) فإن قوله : « اشرح لى » يفيد طلب شرح شيء ما له ، وقوله : « صدرى » تفسير وبيان لذلك الشيء ، وكذلك قوله : « ويسر لى أمرى » والمقام يقتضى التأكيد للإرسال المؤذن بتلقى المكاره والشدائد فى قوله قبله : « اذهب إلى فرعون إنه طغى »(٣) .

---

(١) الصداع : وجع الرأس ، والوصب : المرض الموجع الدائم .

(٢) سورة طه : ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة طه : ٤٣

كما يكون الايضاح بعد الإبهام لتفخيم الأمر وتعظيمه كقوله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين »(١)

ففى إبهام الأمر وتفسيره تقرير للمعنى فى ذهن السامع بذكره مرتين : مرة على سبيل الإجمال والإبهام ، وأخرى على سبيل التفصيل والإيضاح، وفى ذلك تفخيم له وتعظيم ، والمقام مقام وعيد وتهديد ، والتهويل فيه أنسب ، وأدعى إلى الاعتبار .

ومنه : التوشيع :

وهو أن يؤتى فى عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر كما جاء فى الخبر : « يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان : الحرص وطول الأمل ، وكقول الشاعر :

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها
شبيهة خديها بغـــير رقيب

فـازلت فى ليلين : شعر وظلمة
وشمسين من خمر ووجه حبيب

ومنه ذكر الخاص بعد العام : للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات ، كقوله تعالى : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميـــكال فإن الله عدو للكافرين »(٢)

فجبريل وميكائيل عليهما السلام يدخلان فى عموم الملائكة وقد

---

(١) سورة الحجر : ٦٦
(٢) سورة البقرة : ٩٨

أعيد ذكرهما تمييزا لهما وإشعارا بعظم منزلتهما ، ومثـــله قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... »(١)

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يدخلان فى الدعوة إلى الخير لكنهما أفردا بالذكر إشعاراً بقيمتهما فى إصلاح حال البلاد والعباد ،وقوله عز وجل : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ... »(٢)

فالصلاة الوسطى داخلة فى جنس الصلوات وقد خصصت بالذكر للاهتمام بها .

ومنه : التكرير :

إذا كان لداع وفائدة وإلا كان عبثا ، وكل ماورد فى القرآن كان لسر ونكتة بلاغية ، من هذه الأسرار : تأكيد الإنذار كقوله تعالى : « كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون »(٣)

وفى التعبير « بثم » دلالة على كون الإنذار الثانى أبلغ وأشد ،واستمالة المخاطب لقبول الخطاب كقوله تعالى : « وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار »(٤).

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

(٢) سورة البقرة : ٢٣٨

(٣) سورة التكاثر : ٣ ، ٤

(٤) سورة غافر : ٣٨ ، ٣٩

كرر قوله : « ياقوم » للقصد إلى استمالتهم وحملهم على قبول الرشاد وإذا كان فى الكلام طول كقوله تعالى : « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »(١)

وقوله : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »

وقد يكون التكرير لتعدد المتعلق اعتناء به وتعظيما لشأنه كقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » التى تكررت أكثر من مرة فى سورة الرحمن ، لأنه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة وعقب كل نعمة بهذا القول ، وكان الغرض من ذكر الآية الكريمة عقب نعمة غير الغرض من ذكرها عقب نعمة أخرى .

وقد يقال : إن الآية الكريمة عقب بها ماليس بنعمة كما فى قوله تعالى « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »

وقوله سبحانه : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن »(٣)

فيجاب على ذلك : بأن العذاب وجهنم وأن لم يكونا من آلائه تعالى إلا أن مجيئها على سبيل الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات يجعلها من آلائه تعالى .

وكقوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » أكثر من مرة فى سورة

---

(١) سورة النحل : ١١٠

(٢) سورة النحل : ١١٠

(٣) سورة الرحمن : ٣٥

المرسلات ، لأنه تعالى ذكر قصصا مختلفة معقبا على كل قصة بهذا القول ، فصار كأنه قال عقب كل قصة : ويل للمكذبين بهذه القصة .

كما يكون التكرير لقصد الاستيعاب كقولك : قرأت الكتاب صفحة صفحة وفهمته عبارة عبارة ، تقصد بذلك استيعابك له قراءة وفهما .

كما يجيء التكرير لإظهار التحسر ، كقول الحسين بن مطير فى رثاء معن بن زائدة :

فيا قبر معن أنت أول حفرة
من الأرض خطت للسماحة موضعا

ويا قبر معن كيف واريت وجوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

فتكرير قوله : « يا قبر معن » للدلالة على الحزن الذى ملك قلبه .

ومنه : الإيغال :

ومعناه فى اللغة : المبالغة من : أوغل فى الأمر إذا بالغ فيه . وفى الاصطلاح : ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ، كزيادة المبالغة فى التشبيه فى قول الخنساء من رثاء أخيها صخر :

وإن صخرا لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار

فقد شبهته بالجبل فى الارتفاع والشهرة ، ولم تكتف بذلك بل جعلت فى رأسه ناراً مبالغة فى التشبيه .

و كتحقيق التشبيه فى قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

فالجزع : خرز فيه بياض وسواد وقد شبه الشاعر عيون الوحش به ولما كانت عيون الوحش غير مثقوبة ، زاد قوله : « لم يثقب » تحقيقا للتساوى بين الطرفين فى وجه الشبه لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون ، ومثله قوله :

حملت ردينيا كأن سنانه
سنا لهب لم يتصل بدخان

فقد شبه رأس الرمح بضوء اللهب فى اللمعان والإشراق ، ولما كان فى المشبه به شىء لايوجد فى المشبه وهو الدخان نفاه تحقيقاً للتساوى بين الطرفين فى وجه الشبه .

ولزيادة الحث والترغيب : كقوله تعالى : « قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون »[1] .

فقوله : « اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون » أدل وأبلغ فى الدعوة إلى اتباع الرسل ، إذ يصير المعنى : إنكم لاتخسرون باتباعهم شيئابل تربحون صحة دينكم ودنياكم ، وبذلك تنالون خير الدنيا والآخرة

(١) سورة يس ٢٠ ، ٢١

ومن صور الإطناب : التذييل :

وهو تعقيب الكلام بجملة تشتمل على معناها لقصد التوكيد والتقوية وهو نوعان : غير جار مجرى المثل ، إذا لم يكن مستقلا بمعناه ، وتوقف على ماقبله فى الإفادة ، كقوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور »(١) ، فقوله : « وهل نجازى إلا الكفور » تذييل غير جار مجرى المثل لعدم استقلاله فى إفادة المعنى عما قبله .

وتذييل يجرى مجرى المثل : إذا استقل فى إفادة المعنى عما قبله كقوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »(٢)

فقوله : « إن الباطل كان زهوقا » تذييل جار مجرى المثل لاستقلاله فى إفادة المعنى عما قبله .

ومنه قول النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب(٣)

فأى الرجال المهذب تذييل جار مجرى المثل .

وقول الحطيئة :

تزور فتى يعطى على الحمد ماله ... ومن يعط أثمان المكارم يحمد

فالمصراع الثانى تذييل جار مجرى المثل

---

(١) سورة سبأ : ١٧
(٢) سورة الإسراء : ٨١
(٣) الشعث فى الأصل : انتشار شعر الرأس وتغيره لكثرة أوساخه ، والمراد به هنا ، العيب على سبيل الاستعارة .

ويجتمع الضربان فى قوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ...»(١)

فقوله : أفإن مت فهم الخالدون » تذييل غير جار مجرى المثل، وما بعده تذييل يجرى مجرى المثل .

ومن صور الإطناب : التكميل أو الاحتراس وهو : أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ، وقد يجىء ذلك فى وسط الكلام كقول طرفه :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمه تهمى(٢)

فقد احترس بقوله : «غير مفسدها » عن المطر الذى يأتى بالدمار والفناء وكقول ابن المعتز :

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فربما توهم أن كثرة ضرب الفرس بالسياط لبلادتها وخمولها فاحترس بقوله : «ظالمين» عن توهم هذا المعنى غير المراد .

وقد يأتى الاحتراس فى آخر الكلام كقوله تعالى : « . . فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »(٣) .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٤ ، ٣٥

(٢) الديمة : المطر المسترسل،تهمى : تسيل — الصوب: المطر

(٣) سورة المائدة ٥٤

فلو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلك لضعفهم ، فلما أتبع ذلك بقوله : «أعزة على الكافرين» علم أنها منهم تواضع لهم ،ولذا عدى الذل بعلى مع كونه يتعدى باللام ، لتضمينه معنى العطف، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ، ويجوز أن تكون التعدية بعلى لإفادة معنى:أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم يخفضون لهم أجنحتهم، ومن ذلك قول كعب بن سعد الغنوى :

حليم إذا ما الحلم زين أهـــله
مع الحلم فى عين العـــدو مهيب

فلو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن ذلك عن عجز فلم يكن صفة مدح فقال : «إذا ما الحلم زين أهله » ليزيل ذلك الوهم، وأما بقية البيت فتأكيد للازم ما يفهم من قوله : « إذا ما الحلم زين أهله » — من كونه غير حليم حين لا يكون الحلم زينا لأهله ، فإن من لا يكون حليما حين لا يحسن الحلم يكون مهيبا فى عين العدو ولا محالة . وكقول أبى الطيب :

أشـد من الرياح الهوج بطشا
وأسرع فى الندى منها هبوبا(١)

فلو اقتصر على وصفه بشدة البطش لأوهم ذلك أنه فى منتهى العنف ولا يعرف اللين فأزال ذلك التوهم بوصفه بالسماحة غير متجاوز فى ذلك صفة الريح التى شبهه بها ، وقوله : «وأسرع فى الندى منها هبوبا» مقتبس من قول ابن عباس رضى الله عنهما : «كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين كان يأتيه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

(١) الهوج : جمع هوجاء وهى الريح التى لا تستوى فى هبوبها وتقلع البيوت من شدتها .

ومن صور الإطناب : التتميم :

وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة[١] تفيد نكتة كالمبالغة فى المدح فى قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »[٢] فقوله : « على حبه» أى مع حبهم للطعام وحاجتهم إليه واشتهائهم له يقدمونه للمذكورين وذلك يفيد المبالغة فى مدحهم لأن إطعام الطعام مع الاحتياج إليه أقوى دليل على الإيثار والكرم ، ومثله قوله سبحانه : « . . وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... »[٣] .

وقوله عز وجل : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .. »[٤].

أى : مما تشتهون وتحتاجون إليه،ومنه قول الشاعر :

إنى على ما ترين من كبرى أعرف من أين تؤكل الكتف

فقوله : « على ما ترين من كبرى » تتميم يقصد به المبالغة فى إتقانه للأمور وإجادته لها على الرغم من كبره ، فكيف ذلك وهو شاب قوى!!

وكقول زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم بن سنان :

من يلق يوما على علاته هرما
يلق السماحة منه والندى خلقا[٥]

---

(١) المراد بها : ما ليس بجملة مستقلة ولا ركن فى الكلام ، سواء توقف المعنى عليها أولا

(٢) سورة الإنسان ٨

(٣) سورة البقرة ١٧٧

(٤) سورة آل عمران ٩٢

(٥) على علاته : أى على كل حال

فقوله : على علاته ، تتميم قصد به المبالغة فى مدحه بالكرم ، أى أن من يقابله يجد الكرم والسخاء على الرغم من فقره وإعساره، فكيف الحال لو كان غنيا موسرا ؟

ومن صور الإطناب : الاعتراض :

وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام كالتنزيه فى قوله سبحانه: «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون»(١) « فسبحانه » واقع موقع المصدر الذى هو التنزيه ، وكأنه قيل:أنزهه تنزيها عما يقولون علوا كبيراً .

وكالدعاء فى قول أبى الطيب المتنبى :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

يصف الممدوح بأنه لكثرة تجاربه يرى كل شىء فى الدنيا حقيراً وفانيا، لكنه يستثنيه من جملة ما يفنى بالجملة الاعتراضية : « وحاشاك » التى تحمل الدعاء له بالبقاء لسيرته العطرة .

ومن ذلك قول عوف بن محلم الشيبانى يخاطب عبدالله بن طاهر وكان قد دخل عليه عبد الله فلم يسمع لضعفه وكبر سنه :

إن الثمانين وبلغتها
قد أحوجت سمعى إلى ترجمان(٢)

يقول له : إن امتداد عمرى ببلوغى الثمانين التى أدعو لك ببلوغها جعلنى

---

(١) سورة النحل ٥٧

(٢) الترجمان فى الأصل: الذى يفسر لغة بأخرى،والمراد به هنا:مطلق المفسر والمكرر.

لا أسمع الكلام إلا بعد تكرار وإعادة ، فقوله : « وبلغتها » جملة معترضة قصد بها الدعاء له بطول العمر .

ومن نكات الاعتراض: التنبيه أى تنبيه المخاطب إلى أمر يؤكد إقباله على ما أمر به كقول الشاعر :

واعلم فعلم المرء ينفعه   أن سوف يأتى كل ما قدرا

فقوله : « فعلم المرء ينفعه » اعتراض قصد به تنبيه المخاطب على الاهتمام بما أمر به وهو العلم .

وكتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد فى أمر علق بهما ، كقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير »(١) فقوله : « حملته أمه وهنا على وهن » اعتراض جىء به لتأكيد فضل الأم ، وما تستحقه من زيادة اهتمام ورعاية.

وقد يجىء الاعتراض فى ثنايا اعتراض آخر كما فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم »(٢) فقوله: « لو تعلمون » اعتراض بين الموصوف والصفة وقوله: « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » اعتراض بين القسم والمقسم عليه جىء به لتأكيد القسم أو تفخيمه.

ومن الاعتراض بأكثر من جملة قوله تعالى « .. فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم .. »(٣) فقوله: « نساؤكم حرث لكم » بيان لقوله . « فأتوهن من حيث أمركم الله » أى

---

(١) سورة لقمان ١٤
(٢) سورة الواقعة ٧٥ — ٧٧
(٣) سورة البقرة ٢٢٢ ، ٢٢٣

لا تأتوهن إلا من المكان الذى يحدث منه الإنجاب وقوله . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» اعتراض بأكثر من جملة فائدته الترغيب فى إتيان النساء من حيث أمروا به والتنفير عن إتيانهن من حيث نهوا عنه، ومثله مما وقع الاعتراض فيه بأكثر من جملة قوله تعالى . « قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم»(١) فقوله . «والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى » اعتراض بأكثر من جملة وليس من قول أم مريم ، وقد وقع بين قوليها تسلية لها وتطيبا لخاطرها .

ووجه حسن الاعتراض كما ذكر الخطيب القزوينى : حسن الافادة ، مع أن مجيئه مجىء مالا يعول عليه فى الافادة ، فيكون مثل الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها(١).

فتلك صور الإطناب التى ساقتها معظم كتب البلاغة ، وقد ذكر ضياء الدين بن الأثير بعضاً من وجوه الإطناب عدا ما سبق مثل : رأيته بعينى ، وقبضته بيدى ، ووطئته بقدمى ، وذقته بفمى — وقد علق على هـذه الأساليب بأنه ربما يتوهم عند النظرة الأولى أنها تشتمل على أمور لا داعى لها ، إذ أن الرؤية لا تكون إلا بالعين ولا يتأتى القبض إلا باليـد ولا يكون الوطء إلا بالقدم ولا يكون الذوق إلا بالفم لكن عند التأمل يزول ذلك الوهم ويتأكد من أن ذلك لفائدة هى :

أن ذلك لا يقال إلا فى كل شىء يعظم مناله ، ويعز الوصول إليـه فيؤكد الأمر فيه على هذا الوجه دلالة على نيله والحصول عليه .

ومن ذلك قول الله عز وجل . « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله

---

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) بغية الإيضاح ٢ ١٦٧.

بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون»(١).

فقد يتوهم أن لفظة «فوقهم» زائدة لا حاجة إليها، لما هو معروف من أن السقف لا يكون إلا من فوق.

وبالتأمل يتبين لنا أن لها فائدة لا تتحقق عند إسقاطها من الكلام وذلك ما نحسه من الرعب عند تلاوتها أو سماعها وما يخيل إلينا من أن سقفا خر على أولئك من فوقهم.

وقوله تعالى أيضا: «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة»(٢) فقد يتوهم أول الأمر أن الوصف «بواحدة» زيادة لا داعي لها اذ أن كلا من «النفخة والدكة» واحدة لكن بالتأمل يزول ذلك التوهم ويتأكد من أن لذلك سرا بلاغيا ما كان ليتحقق بدون الوصف بواحدة، ذلك أن النفخ في الصور الذى تبعث عنده الأموات من القبور مهول عظيم، فيه دلالة واضحة على القدرة الباهرة وكذلك حمل الأرض والجبال — فلما كانا بهذه الصفة قيل فيهما: «نفخة واحدة» و«دكة واحدة» أى إن هذا الأمر المهول العظيم سهل يسير على الله تعالى يفعل ويمضى الأمر فيه بنفخة واحدة، ولا يحتاج فى ذلك إلى مشقة وطول مدة، فجيء بذكر «الواحدة» لتأكيد الإعلام بأن ذلك مع عظمه سهل على الله تعالى(١).

---

(١) سورة النحل ٢٦.

(٢) انظر: المثل السائر ٢: ٣٥٩ وما بعدها

المساواة :

وهى أن تجىء الألفاظ على قدر المعانى بلا زيادة أو نقصان على نحو ما ورد من وصف بعض الأدباء لرجل بقوله: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه — أى مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر(١) .

وللمساواة كما للإيجاز مواطنها التى تحسن فيها ،فلما كان الإطناب يحسن فى المواقف الجامعة ومع العوام من الناس ، ومن لا يسبق ذهنه إلى تصور المعانى ، ويحسن الإيجاز مع المثقفين والرؤساء ومن يقتضى الحال عدم التطويل عند الحديث معه ، فإن المساواة وهى وسط بين الإطناب والإيجاز تحسن مع الفئات الوسط بين الرؤساء والعوام ، وفى المسائل العلمية التى ينبغى أن تكون الألفاظ فيها على قدر المعانى .

ومن أمثلة المساواة قول الله عز وجل: «ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله»(٢) أى لا ينزل عقاب الله إلا بمن يستحقه فالألفاظ على قدر المعانى ، والمقام يقتضى ذلك .

ومن ذلك أيضا قول الله عز وجل : « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره»(٣) .

فالألفاظ فيها على قدر المعانى ، وقد علق ابن الأثير عليها بقوله :«ألا ترى إلى هذا الكلام الذى لو أردت أن تحذف منه كلمة واحدة لما قدرت على ذلك ، لأنك كنت تذهب بجزء من معناه»(٤) .

---

(١) سر الفصاحة ص٢٠٩ (٢) سورة فاطر : ٤٣
(٣) سورة عبس: ١٧ — ٢٣ (٤) المثل السائر ٢ : ٣٣٣ ، ٣٣٤

وقوله سبحانه : «من كفر فعليه كفره»(١) «فعليه كفره» عبارة جامعة تغنى عن ذكر ضروب من العقاب لأن من أحاط به كفره أحاطت به كل خطيئة .

ومن ذلك فى كلام الرسول ﷺ : «لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرما»

ومن ذلك قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر :

فإنك كالليـل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

يصفه ببسطة اليد وسعة السلطان وأن أحدا لا يستطيع الإفلات منه وإن كان بعيدا وذلك كالليل الذى يغطى بظلمته كل الكائنات فقد جاءت المعانى فى ألفاظ مساوية لها .

• • •

(١) الروم : ٤٤

أهم مراجع الكتاب

الإيضاح	الخطيب القزوينى
بغية الإيضاح	عبد المتعال الصعيدى
سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجى
الصناعتين	أبو هلال العسكرى
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجانى
دلالات التراكيب	د/ محمد أبو موسى
عروس الأفراح	بهاء الدين السبكى
الكشاف	جار الله الزمخشرى
المثل السائر	ابن الأثير
المطول	سعد الدين التفتازانى
مفتاح العلوم	السكاكى
من بلاغة القرآن	د/ أحمد بدوى
المنهاج الواضح	حامد عونى